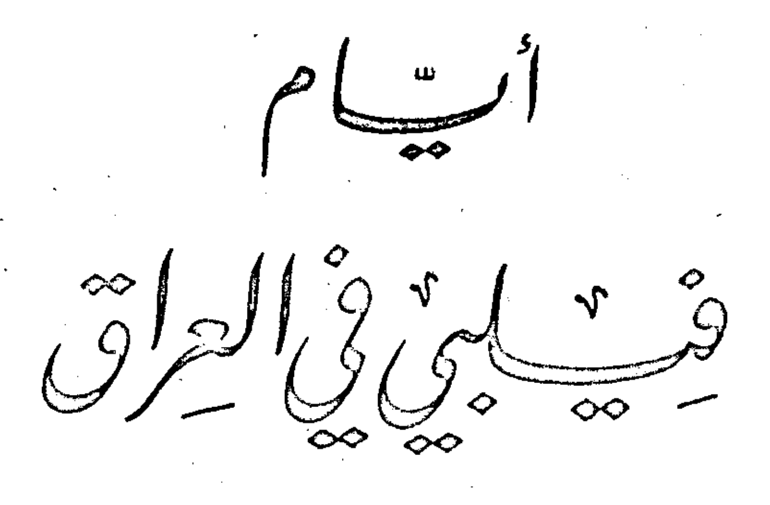


كتبه بالانكليزية

ه. سنت جون فيلبي

ونقله الى العربية

جعفر خياط

M. Sc. , B. Sc. (كالفورنية)

دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت – لبنان

١٩٥٠



الحاج عبد الله فيلبي

بعض آثار المترجم

١ – العراق - دراسة في تطوره السياسي ، لمؤلفه المستر فيليب ويلارد آيرلاند – نشر سنة ١٩٤٩

٢ – أربعـــة قرون من تاريخ العراق الحديث ، لمؤلفه المستر ستيفن هـ. لونكريك (الطبعة الثانية ١٩٤٩)

٣ – فصول من تاريخ العراق القريب ، للمستر غيرترودبيل (١٩٤٩)

٤ - من رسائل المس غيرترودبيل « معد للطبع »

٥ – رسائل لورنس السرية «

٦ – القرية العراقية ، دراسة في اصلاحها وانعاشها تحت الطبع .

مقدمة المترجم

جاء المستر أينش. سنت جون فيلبي [١] لأول مرة الى العراق في تشرين الثاني ١٩١٥ عندما كانت الحملة البريطانية التي احتلت البصرة تتقدم شمالاً في طريقها الى احتلال بغداد. وقد كانت « الدائرة السياسية » ، برئاسة السر بيرسي كوكس، التي رافقت الحملة بها حاجة ماسة الى رجال ذوي خبرة ادارية ومواهب لغوية ليضطلعوا بواجبات الادارة المدنية التي كانت تتسع شيئاً فشيئاً كلما تقدم الجيش وأصبح افتتاحه لبغداد شيئاً متوقعاً . وكان المستر فيلبي آخر من وصل من الهند من مثل اولئك الرجال الذين جردهم الاستعمار لحكم هذه البلاد، كما كان من القلائل الذين لم يكونوا من رجال السلك العسكري . وكان وصوله يوم ٢٠ تشرين الثاني عندما كان الجنرال طاونزند ينتظر بالقرب من « طاق كسرى » اندحاره الشنيع ، على يد خليل باشا والي بغداد وقائد الجيش التركي في تلك الجبهة ، وتراجعه السريع الى الكوت التي تحاصر فيها مع جيشه مدة تقارب الخمسة أشهر .

وقد عُيّن في الشعبة المالية (في البصرة) التي أسسها كوكس في « الدائرة السياسية » بعنوان « مساعد مالي لرئيس الحكام السياسيين » . فاشتغل في تأسيس الدائرة المالية ووضعها على الاسس التي سارت عليها مدة من الزمن بعد ذلك. وفي هذه الدائرة اتصل لاول مرة بالكولونيل ويلسن ، الذي اصبح بعد ذلك وكيل الحاكم الملكي العام ، وهناك وقع اختلاف بينهما فكان ذلك أساساً للاختلافات الكثيرة التي وقعت بعد ذلك فأدت الى ان يترك المستر فيلبي العراق مدة من الزمن ليعود اليه في الوقت الذي نُحيّ فيه ويلسن عن العراق ، بعد الثورة

(١) H. St. John Philby

العراقية ، وعاد اليه السر بيرسي كوكس لتشكيل الحكومة الموقتة وتأسيس كيان الدولة العراقية الحالي . وفي خلال اشتغاله في البصرة بدأ بتعلم العربية بعد ان كانت له معرفة طفيفة بمبادئها العامة . كما اشتغل موقتاً بادارة جريدة «الاوقات البصرية» التي كانت تصدرها بالعربية والانكليزية ، السلطات البريطانية هناك . وفي خلال مدة اشتغاله في الشؤون المالية وحدوث أزمات للنقد المتداول جرت مفاوضة مع « المصرف الشرقي » أدت الى تأسيس فرع له في البصرة لأول مرة ، حيث أصبح مصرفاً للادارة المدنية. وكان هذا أول عهد المصرف المذكور بالاشتغال في العراق ، وقد بقي مصرفاً للحكومة العراقية بعد ذلك الى حين تأسيس مصرف الرافدين خلال الحرب الأخيرة . كما تعرف في أواخر أيامه في البصرة بالمس بيل التي كانت قد وصلت للاشتغال في دائرة الاستخبارات بمعية كامبيل – طومسن ثم انتقلت الى الدائرة السياسية بعد ذلك . وكان مجيئها من مصر حيث كانت تشتغل في معية غلبرت كلايتون والدكتور دي. جي. هوغارث في شعبة الاستخبارات التي أصبحت تسمى أخيراً « المكتب العربي » .

وبعد مدة من الزمن وقعت خلالها حوادث كثيرة أهمها استسلام طاونزند في الكوت وتعيين الجنرال مود قائداً عاماً للجيوش الجديدة التي تحتم عليها استئناف الحملة الى بغداد بعد ذلك،ونشوب الثورة العربية وتألق نجم لورنس فيهاوغيرذلك. بعد هـذا كله اضطر المستر دوبس ان يتخلى عن وظيفته كمعتمد للواردات فعين فيلبي في مكانه .

وبعدتطورات أخرى في الوضع العسكري وفي وضع الادارة المدنية خيّره السر بيرسي كوكس بين ان يعيّن « وكيلاً سياسياً » في الكويت .أو « حاكماً سياسياً » في العمارة فاختار الحاكمية السياسية في العمارة من غير تحمس . وكانت من أهم أعماله في منطقة العمارة توفقه لاقناع غضبان البنية، شيخ بني لام المعروف، في تجهيز الاغنام التي كان يحتاجها الجيش البريطاني المتقدم الى بغداد ، بعد ان خاب قبله ليجمن المشهور .

وقد ملّ الاشتغال في العمارة بعد ان قضى فيها مدة تقارب السنة احتلت خلالها

بغداد وانتقل كوكس مع إدارته المدنية اليها . فطلب الانتقال الى اية وظيفة في بغداد ، فعرض عليه الاشتغال باصدار جريدة « العرب » التي كانت الادارة المدنية تزمع اصدارها . فوافق على ذلك ، وتوجه الى بغداد فوصلها في ١٧ مايس ١٩١٧ .

الا انه وجد ، بعد وصوله بغداد ، ان دائرة السر بيرسي كوكس التي كانت تشغل سكرتاريتها المس غيرترود بيل تنوء باشغالها الكثيرة المتراكمة ، فصُرف النظر عن اشتغاله باصدار جريدة « العرب » وألحق بالدائرة السياسية . وهناك اشتغل مع المس بيل في تنظيم شؤون الدائرة وتصفية أشغالها المتراكمة بالشكل الذي أرضى كوكس كما يقول هو . ومما يؤثر ذكره هنا ان المستر فيلبي خلال اشتغاله هنا اتصل بحكم وظيفته بالكثير من الموظفين البريطانيين ، وقد اصطدم خلال اشتغاله هذا بالكولونيل ليجمن الحاكم السياسي المعروف الذي قتله الشيخ ضاري في خان النقطة فيما يقرب من الفلوجة خلال الثورة العراقية التي وقعت بعد ذلك . وقد اصطدمت بليجمن أيضاً المس بيل التي كانت تكرهه وكثيراً ما كانا يتشادّان فيما بينهما بفظاظة . وكان سبب ذلك استهجان فيلبي والمس بيل للخطة التي عرضها ليجمن على كوكس في القبض على محمد علي كمونه وفخري كمونه في كربلا اللذين ثبت للسلطات البريطانية يومذاك ايصالهما الطعام والارزاق للجيش التركي . وفي خلال اشتغاله هنا عادت فكرة اصدار جريدة « العرب » بالنظر للحاجة التي اظهرت نفسها للدعاية . فاصبح فيلبي رئيساً للتحرير فيها بالاضافة الى وظيفته الاصلية ، كما دبّر الاتيان بالمرحوم الأب انستاس ماري الكرملي لتمشيتها كمساعد رئيس تحرير . وهو يقول ان الأب انستاس كان يقوم بجميع الاعمال فيها باشرافه هو (فيلبي) .

ويقول المستر فيلبي انه كان ملتذاً في عمله هنا لانه كان « في وسط مجرى التطورات الحيوية التي كانت تجري خلال أيام بغداد الأولى هذه » على حد قوله . ومن أهم هذه التطورات ، إحياء الفكرة التي كانت ترمي الى ضرورة الاتصال بابن سعود ، الذي كانت علاقاته بالملك حسين تتطور من سيء الى أسوأ ، فتصبح عداء واضحاً . ولاجل حل هذا المشكل اقترحت الجهات المختصة ، بعد ان جرت مخابرات متطاولة بين الدوائر البريطانية ذات الشأن في القاهرة وبغداد ، ان يرسل

وفد بريطاني من القاهرة وآخر من بغداد الى الرياض لبحث الوضع بأجمعه مع ابن سعود . وكانت الحاجة ماسة الى ذلك ، خاصة بعد ان لمع نجم الحسين وتوفقت جيوش الثورة العربية لطرد الاتراك من الحجاز فوصلت الى أبواب دمشق، في الوقت الذي كان فيه ابن سعود كمية مهملة قابعاً في وسط الجزيرة يتخذ موقفاً يسيء الى الملك حسين فيه . وكان ابن السعود في نهاية ١٩١٦ قد زار البصرة فاستقبل استقبال العاهل الحاكم فرأى بأم عينه جيوش بريطانية وقوتها العسكرية. فنُدب أخيراً لهذه المهمة الكولونيل آر. أي. هاملتن « الوكيل السياسي » في الكويت يومذاك .

وكان الخلاف ، في الوقت نفسه ، يزداد استحكاماً بين المستر فيلبي « المعتمد الامين » لكوكس في بغداد ، كما يسمّي نفسه، والكولونيل ويلسن وكيل رئيس الحكام السياسيين في البصرة. وكان سبب ذلك اختلاف الاثنين في الشخصية والرأي السياسي . حيث كان ويلسن يحمل افكاراً وآراء استعمارية مزوقة ترمي الى جعل العراق تابعاً هندياً ودرة من درر التاج البريطاني بصرف النظر عن الوعود والتصريحات التي صدرت من بريطانية العظمى في مختلف المناسبات بشأن مستقبل البلاد . فأدى ذلك الى عرقلة اعمال ويلسن وتوقف خططه عن السير في البصرة لان فيلبي كان الى جانب كوكس مع المس بيل في بغداد يشيران عليه بما لا يتفق وآراء ويلسن . حتى طفح الكيل ووصل الخلاف الى ذروته فحضر الكولونيل ويلسن الى بغداد وتمكن من اقناع كوكس بتنحية فيلبي وإحلاله (ويلسن) في محله ببغداد . وعندئذ طلب المستر فيلبي ان يرسل على رأس الوفد الذي تقرر إرساله الى ابن سعود في الرياض . فوافق كوكس على ذلك واجريت الترتيبات اللازمة لسفره ، فتم ذلك وكان هذا اول اتصال له بابن سعود. حيث بقي في الجزيرة العربية مدة تقارب السنة عاد بعدها الى بغداد . وبذلك يبدأ البحث الوارد في هذا الكتيب .

والكتيب هذا هو فصل خاص كتبه المستر فيلبي في كتابه الذي أصدره عام ١٩٤٨ بعنوان « Arabian Days » ، الذي يبحث فيه عن نشأته وتوظفه واشتغاله

في العراق وشرق الاردن وجزيرة العرب . وقد وجدت في هذا الفصل المعنون « العراق في دور التكوين » معلومات هامة ذات وجهة نظر خاصة عن العراق في أيام الحكومة الموقتة وما وقع فيه من الأحداث السياسية التي تتركز في تشكيل الحكومة الموقتة ومطامع السيد طالب باشا النقيب ودعوة فيلبي الى الجمهورية مع مجيء فيصل الى العراق وغير ذلك من الحوادث التي يهم العراقيين والمعنيين بتاريخ العراق السياسي معرفته . يضاف الى ذلك ما استطرق الى بحثه عرضاً من عوامل الخلاف بين الملك حسين وابن سعود التي أدت الى واقعة الخرما على الحدود النجدية الحجازية .

ويُلاحظ مما كتبه فيلبي في هذا الكتيب وغيره انه رجل يكاد يكون شاذاً في سلوكه معتداً بآرائه، وانه كان يميل الى جعل نظام الحكم في العراق نظاماً جمهورياً يكون على رأسه السيد طالب باشا النقيب الذي كان يميل اليه ميلاً خاصاً . واني أرى ان ما كان يدفعه الى ذلك هو كرهه للملك حسين وأسرته وانحيازه الى ابن سعود الذي قضى عنده في الجزيرة مدة تقارب السنة قبل ان يعود الى العراق ويشتغل موظفاً بريطانياً في الحكومة الموقتة . حتى انه لم يتورع ، بذلك الدافع، عن مفاتحة الأمير فيصل قبل وصوله بغداد بان نجاحه في ترشيح نفسه للعرش العراقي غير مضمون ، فأدى ذلك الى إخراجه من الخدمة في العراق .

وبعد ان أنهى إجازته وعاد من تجواله في إيران عرضت عليه الحكومة البريطانية ، بواسطة كوكس ، الخدمة في إمارة شرقي الأردن بوظيفة « الممثل الاول للحكومة البريطانية » هناك خلفاً للمستر لورنس المعروف. فوافق على ذلك في الحال وتوجه الى هناك . وقد بقي في هذا المنصب مدة تقارب الثلاث سنوات حاول ان يشتغل خلالها من أجل ايصال تلك الأمارة الى مرحلة الاستقلال التام بكل جدية كما يقول . الا انه يظهر ان جدّيته هذه، او شذوذه كما يمكن ان يقال ، أدت به الى التصادم ايضاً . حيث انه اصطدم مع حكومة فلسطين والمندوب السامي فيها السر هربرت صموئيل او مع السياسة البريطانية نفسها وما كان مبيتاً فيها لشرقي الاردن . حيث ان حكومة فلسطين كانت تحاول فرض سيطرتها على شرقي

الاردن بشتى المناسبات والأساليب لتقضي على استقلال شرقي الأردن. ومن يدري، فربما كانت للسر هربرت صموئيل، المندوب السامي البريطاني في فلسطين الصهيوني الأصل [1]، أغراض من هذا التدخل، لان أطماع الصهيونية قد برهنت اخيراً على انها لا تكتفي باغتصاب فلسطين وحدها! ويقول المستر فيلبي بشأن هذا التدخل انه « عند مقابلتي للمندوب السامي اغتنمت الفرصة فاستعرضت جميـــع حوادث الاحتكاك التي وقعت بيننا في الستة الأشهر الأخيرة. كما قلت له انني لا يسعني سوى ان أشعر انه هناك ميل عنده الى مد رواق سيطرة حكومة فلسطين على ادارة شرقي الاردن بخلاف السياسة التي صرح لي بها المستر تشرشل نفسه وأيدها بعد ذلـــك « دوق ديفونشاير » [2] خلال زيارتي للندن. ولا يمكنني بأي وجه من الوجوه ان أساهم في مثل هذا التبدل الرجعي في السياسة، كما انني بالنسبة لهذه الظروف لا يسعني الا ان أرفع استقالتي .... ثم اضفت قائلاً ان الجهود التي بذلتها في شتى المناسبات لخدمة سياسة حكومة صاحب الجلالة في السنين الأخيرة كانت تُحبط بانتظام بواسطة تبدلات فجائية مثل هذه، الأمر الذي يصبح شيئاً ضاراً بالنسبة لمصلحة الجهات المختلفة التي يعنيها الأمر. وبالنظر لهذا قررت، مع مزيد الأسف، ان أقطع اتصالي بالحكومة نهائياً لأجل ان اكون مطلق الحرية في نقد سياستها عندما أرى ضرورة لذلك. وعلى هذا سأكون مسروراً اذا كان في وسعه (المندوب السامي) ان ينقل رغبتي هذه الى الجهات المختصة واستقالتي من الخدمة المدنية في الهند من تاريخ انتهاء إجازاتي التي استحقها عن خدماتي السابقة كلها ».

فقبلت استقالته على هذا الأساس وغادر عمان في ١٧ نيسان ١٩٢٤. وقد واجه

(١) كان السر هربرت صموئيل قبل مجيئه الى فلسطين من ابرز الرجال الذين اشتغلوا مع الساسة البريطانيين أمثال لويد جورج والسر أدورد غراي واللورد بلفور من اجل القضية الصهيونية، مما أدى الى مبادرة الحكومة البريطانية للتصريح بوعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧. ويقول السر رونالد ستورز أحد المشتغلين بشؤون البلاد العربية المشهورين، ان السر هربرت صموئيل هذا كان أحد رجال الصهيونية الذين رافقوا حاييم وايزمن عند مواجهته المغفور له الملك فيصل إبان وجوده في أوربة (مؤتمر الصلح) لاقناعه بالاعتراف بالوطن القومي اليهودي في فلسطين. ويبدو ان تعيينه مندوباً سامياً في فلسطين كان شيئاً مقصوداً.

(٢) وزير المستعمرات في ١٩٢٣.

الامير عبدالله [1] مودعاً قبل سفره ، وهو يقول انه خاطبه قائلًا: « لقدعملت جهدي ان اشتغل من أجلك ، ولم تكن لي رغبة منذ مجيئي الى هنـــا سوى ان أرسّخ سلطتك على أسس ثابتة كأمير مستقل في دولة مستقلة . وبرغم ما حصل بيننا من الاختلاف الطبيعي أحياناً فقد كنت صديقك وزميلك على الدوام . وسوف تجد ان خلفي سيكون سيدك مهما كان في أسلوبه من الصداقة. واني متأسف ان أحلامي بتأسيس دولة عربية في شرقي الأردن لم تتحقق ، وسوف لا تتحقق في المستقبل مطلقاً . فاذا كان ذنبي هو ذلك فاني أطلب العفو من سموك » . وفي الحفلة التي أقيمت لتوديعه القى خطاباً قصيراً قال فيه : « انني أشبّه زوجتي ونفسي بفأرين يهربان من سفينة غارقة . حيث ان شرقي الأردن قد تتقدم في المستقبل ، إلا انها سوف لا تكون مستقلة كما كنت أومل لها ان تكون » .

وبذا انقطعت علاقته بالحكومة البريطانية وعاد الى وطنه انكلترة . وهناك اتفق مع روزيتا فوربس السائحة المشهورة،التي ارتادت الصحراء الكبرى مع أحمد حسنين في افريقية ، على ارتياد الربع الخالي في جزيرة العرب على نفقة جريـــدة « الديلي تلغراف » ، وكان يأمل ان يحصل على معونة صديقه ابن سعود في مهمته هذه . غير ان الرياح كانت تجري بما لا تشتهي السفن . حيث ان الوهابيين هاجموا الحجاز لقتال الملك حسين (١٥/٩/٢٤) ، فانشغل ابن السعود عن مساعدته لفيلبي

---

(١) ندرج فيما يلي ما جاء في ص ٢٩١ من « مذكرات الملك عبد الله » (الطبعة الثانية) عنه : ولما حضر الكولونيل لورنس الى عمان ومعه حدادباشاالناظر في المعاهدة الحجازية ـالانكليزية بقي وكيلا المعتمد الى ان تهيأت الاسباب فعين مستر فيلـبي معتمداً بشرقي الاردن . وهو معروف لدى العرب على شيء كثير من الاخلاص في البلاد التي يعمل فيها .

ومن جملة ما اذكر له ــ كفكرة ظريفة ــ في إحدى الليالي ، وقد كان في المجلس شخص طلب ان يكتب كل من حضر المجلس جملة أدبية ، فكتب المستر فيلبي البيت المشهور لعبيد بن الابرص :

ساعد بأرض ما دمت فيها ولا تقـــل انني غريـــب

وهذا شاهد على ما قلت . وان اخلاصه للملك عبد العزيز بن سعود يكاد يفوق اخلاصه للمكه وبلده . وقد سافر معي الى لندن في السفرة الأولى ، ولم يأل هناك جهداً في القيام بواجبه . ولقد كان بيننا احياناً ما يكدر صفو الوداد لصلف يبدو منه. ولقد كان هنا يوم شرف الوالد المرحوم شرقي الاردن وحين البيعة بالخلافة ، ولقد حرض الناس وحضهم عليها .

في مهمته الاستكشافية ، وبذا اجّل الاضطلاع بها [1] . غير ان عيونه ظلت ترنو الى الجزيرة العربية على الدوام . فعرض على الدكتور ناجي الأصيل ، وكيل الحكومة الحجازية في لندن يومذاك ، ان يضع نفسه تحت تصرف الملك علي ليقوم بدور الوسيط بين الطرفين : فوافق الملك علي في جدة على ذلك وسافر الى الحجاز الا ان وساطته لم تجد نفعاً فأكمل الوهابيون احتلال الحجاز بأجمعه . وهو يقول خلال البحث عن الوساطة : « وكان يظهر ان ابن السعود كان على وشك ان يكون مستعداً للبحث في التفاهم مع الملك علي الذي كان ضعيف الأمل في الحصول على أي تأييد من الحكومة البريطانية التي سرها سقوط الحسين » .

وبرغم تحذير البريطانيين وتهديدهم للمستر فيلبي بعدم التدخل في الموضوع ، توغل بعد ذلك في داخلية الحجاز واتصل بابن السعود . وبقي في الحجاز والجزيرة بالقرب منه حتى الآن فكان أشبه بمشاور له في شتى الشؤون . حتى انه يقول ان ابن السعود عندما تمهد له الأمر بعد عدة سنين أمر بتخصيص راتب خاص له فرفض هو ذلك. وقد قيل أخيراً انه تزوج من أميرة سعودية فتركته زوجته الانكليزية وعادت الى بلادها . وقد استطاع عند تردده على لندن ان يقنع بعض الممولين الانكليز بتأسيس شركة أسموها « الشركة الشرقية المحدودة » ، فتأسست في الحجاز وانكلترة وتوسعت أعمالها التجارية برئاسته هو وبقيت كذلك حتى الآن . فتوفق في استيراد سيارات فورد وتعميمها في الحجاز على الاخص . ومما يجدر ذكره أيضاً انه ، بحسب ما يدعي ، هو الذي أشار على ابن السعود بوجوب استقدام الاجانب للبحث عن المعادن في المملكة السعودية ، وهو الذي خابر له الشركات الاميركية والبريطانية ، لانه وجد كما يقول ان ابن سعود كانت فيه حاجة ماسة الى المال . وكانت النتيجة ان توفق الاميركان في اخذ امتياز استخراج البترول منه متسابقين بذلك مع البريطانيين . وقد غضبت عليه الحكومة البريطانية في هذا الشأن .

وقبل إنهاء هذا البحث المقتضب عن المستر فيلبي لا بد من الاشارة الى قضية إعتناقه الاسلام المعروفة . فهو يقول قبل ان يروي قصة اسلامه « ... لقد تعلقت

(١) لقد تسنى له بعد ذلك ارتياد الربع الخالي ، فاصدر كتابه القيم عنه في ١٩٣٣ .

بالجزيرة العربية وغرمت أبها ، وكانت المشكلة التي واجهتني منذ ١٩٢٥ هي هل انا مستعد للسير الى الاخير مع العرب ، او هلا يكون من المعقول ان أعود من حيث اتيت فأحاول مرة اخرى ان امكّن نفسي في المحيط الذي هيأته لي نشأتي ودراستي؟ ولم يكن ذلك اختياراً يسيراً أسارع للبت فيه بسهولة. فقد كنت لا أزال في عمر باكر يؤهلني للطموح في الحصول على منزلة سياسية في انكلترة من دون ان يؤثر ذلك على المصالح التجارية التي أسستها في جدة . وكان لا يزال ، من جهة أخرى ، عندي شيء كثير عن جزيرة العرب مما يجب ان أتعلمه فأعلّمه للعالم ، ويبدو انه كان من الغضاضة ان لا امكث هناك وأتم انجاز العمل الذي بدأته منذ مدة والذي عندي مثل هذه المؤهلات له » .

ثم يتابع قصته عن اعتناقه الاسلام بقوله : « ... ومنذ أيامي الأولى في الهند انجذبت الى الاسلام انجذاباً تاماً لتأكيده الشديد على ما كان يبدو لي صالحاً من الفلسفة واساليب الحياة الخالدة . ولم اكن مسيحياً منذ مدة طويلة بل كنت فيلسوفاً من دون ان يكون لي إحساس او اقتناع ديني مع انني كنت مستعداً للاعتراف بان الدين للسواد الأعظم من البشر يعد ضرورة لا مفر منها . وكان الاسلام في الهند ، من جهة أخرى ، يبدو لي انه قد حُمّل باكثر من اللازم من المبادىء والطقوس الدينية غير الاساسية التي كان يصعب قبولها من غير شيء كثير من التحفظ والاحتراز . وقد وجدت السنيين في العراق على شيء غير يسير من الضحولة والرسميات في ممارسة الدين والتفكير به ، بينما لم تجتذبني العقيدة الشيعية بقدّيسيها وعلمائها الأصوليين . وعلى هذا لم أتصل بما كنت اعتقده الشكل النقي الطاهر من الاسلام دون شك أو نكران إلا عندما ذهبت الى الجزيرة العربية ، ذلك الشكل الذي يستمد تعاليمه بالكلية من منابع وحيه الاصلية في القرآن وسنة النبي ولا يمت بشيء الى ما طرأ على التعاليم بعد ذلك من التفسير والتأويل . وقد لاح لي ، بعد درس عميق، ان العقيدة الوهابية هي الشكل المثالي من الدين ، كما ان تعصب أتباعها لم يكرّههم في نظري. حيث وجدت عندهم مزية ممارسة ما يعتقدون به ويدعون اليه ، كما ان عقيدتهم تبدو متفقة اتفاقاً تاماً مع ما تتطلبه حياة

الانسان والمجتمع البشري بأبسط اشكالها . وهي عقيدة في وسع المرء ان يتقبلها دليلاً في حياته ومسلكه من غير ان يتكون في مخيلته عدم النزاهة الفكرية ، كما ان مقاييسها الاخلاقية يلوح منها انها تناسب حاجات البشرية الاساسية أحسن مما تناسبها الديانات الاخرى كالمسيحية مثلاً. ولئن كان تشريعها قاسياً من بعض الوجوه فهي لا تقر الزيف ، كما ان تعدد الزوجات الذي تقره، والذي كثيراً ما كان هدفاً للنقد والتجريح، فيه من التدابير ضد العهر والفسق ما يفضل على التدابير الموجودة في الوصايا العشر » . وبعد ان يسرد كيفية دخوله الاسلام واعتناقه اياه نهائياً وأخذه الى مجلس الملك ابن السعود يقول : « ... وقد روى الملك للجمع المحتشد كيف صفقت السيدة نورة شقيقته من فرحها عندما سمعت انني أصبحت مسلماً ، ثم قص عليهم بعض ما كان دار بين كلينا من الحديث قبل سنين في هذا الشأن. ثم قال فجأة انتا يجب ان نجد اسماً جديداً له . فماذا تقترحون كلكم ؟ ... لماذا لا نسميه عبدالله ؟ نعم ، فليكن اسمه عبدالله، عبدالله فيلبي ! وهكذا كان منذ ذلك اليوم حتى الآن » .

وآخر ما نعرفه عن تدخل المستر فيلبي في السياسة العربية هو ما ذكره حاييم وايزمن ، رئيس دولة اسرائيل المزعومة ، في ص٤٢٧ من كتابه الموسوم «التجربة والخطأ » [1] الذي نشره سنة ١٩٤٩ عن تاريخ حياته . فقد قال في معرض اشتغاله للصهيونية خلال الحرب العامة الأخيرة ما يلي :

« لقد غادرنا الى اميركا يوم ١١ مارت، وفي يوم سفري مررت برقم ١٠ داونينغ ستريت لأودع المستر جون مارتن السكرتير الشخصي للمستر تشرشل الذي كانت علاقتنا به علاقة طيبة لانه كان سكرتيراً مقتدراً « للجنة بيل » . وبعد ان ودعته قال لي فجأة: « ان رئيس الوزارة في الغرفة الأخرى ، وليس عنده غير قليل من الوقت سأدخلك عليه خلاله » . وهناك جرى بيننا حديث قصير غريب تكلم فيه هو جميع الوقت ، لانني لم انطق بسوى كلمة التوديع . على انه ضمّن كلامه كثيراً من الاشياء في هذا الحديث القصير الذي قاله ونحن واقفون على ارجلنا .

(١) Trial and error, by Chaim Weizman, Harper&Brother, New York(1949).

« حيث انه تمنى لي رحلة سعيدة الى اميركة ، ثم قال : انني سعيد انك ذاهب الى هناك ، وانا متأكد انك سوف تجد اشياء كثيرة تشتغل فيها ». ثم تابع كلامه قائلاً من دون سؤال او تلقين مني : « اريدك ان تعرف انني عندي ترتيب خاص لا يمكنني ان ادبره بلا شك الا بعد ان تضع الحرب اوزارها. فانني اريد ان اجعل من ابن سعود سيد الشرق الأوسط - رئيس الرؤساء - بشرط ان يجري تسوية معكم . وسيترتب عليكم ان تحصلوا منه على احسن الشروط الممكنة. واننا سوف نساعدكم بطبيعة الحال . فليكن حديثنا هذا في طي الكتمان ، لكنك في وسعك ان تبحثه مع روزفلت عندما تصل اميركة . حيث ليس هناك شيء لا يمكننا ان نفعله هو وانا اذا وضعنا فكرنا فيه » .

« هذا هو جميع ما جرى من الحديث . لكنه كان شيئاً كثيراً بحيث صعقت به . والحق هو انني لم اكن لآخذه بصورة حرفية لو لم تحدث اشياء بقيت تحيرني مدة من الزمن والتي لم تكن ذات معنى عندي الا الآن . حيث انني كنت قد صادفت قبل هذا الحديث بأشهر قلائل سنت جون فيلبي رحالة بلاد العرب المعروف وموضع ثقة ابن سعود. وقد تكلمنا يومذاك عن فلسطين وعلاقاتنا بالعرب، فأفضى لي بتصريح كنت قد دونته لكنه كان شيئاً غير مفهوم لدي لصدوره من عنده هو. فقد قال لي : « انني اعتقد ان قضيتكم قد لا يمكن حلها الا بشرطين فقط : اولها ، ان المستر تشرشل والرئيس روزفلت يجب ان يخبرا ابن سعود انهما يرغبان في تنفيذ منهجكم. وثانيهما ، انهما يجب ان يؤيدا سيادته على البلاد العربية ويدبرا قرضاً له يمكنه من إعمار بلاده » . ولم افهم العلاقة بين « ما عرضه » سنت جون فيلبي و « ترتيب » المستر تشرشل الا الآن .

« ... وفي أميركة صادفت رجلاً يدعى الكولونيل هوسكينز ، ويشتغل في دائرة الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية، وقد فهمت انه الممثل الشخصي للمستر روزفلت في الشرق الأوسط . وكان موقف الكولونيل هوسكينز غير ودي بالنسبة لقضيتنا ، لكنه لم يكن في موقف عدائي كما كان زملاؤه في دائرة الشؤون الشرقية . والحقيقة هي انه كان يكاد يكون معقولاً نسبياً. فقد كان يرى انه يمكن

تدبير شيء في فلسطين اذا « اعتدل اليهود في مطاليبهم » . وتحدث لي عن جلب مقدار نصف مليون من اليهود الى فلسطين خلال عشرين السنة القادمة ، وهذا « امتياز » لا يستهان به يمنحه رجل من معارضي الصهيونية .

« وقد غادر اميركة الكولونيل هوسكينز الى الشرق الأوسط ، وعندما قابلته بعد عودته كانت لهجته مختلفة للغاية . فقد قال انه كان قد حظي بمقابلة ابن سعود الذي تكلم عني بلهجة غاضبة فارضاً انني كنت حاولت إرشاءه بعشرين مليون باون ليبيع لقاءها فلسطين الى اليهود . فتعجبت تماماً من هذا التفسير الذي فسر به اقتراح لم تكن لي يد به قط ، لكنه كان في الحقيقة قد عرضه علي ممثل ابن سعود ـ سنت جون فيلبي . وأخبرني الكولونيل هوسكينز بالاضافة الى ذلك ان ابن سعود سوف لا يسمح مطلقاً لفيلبي بالدخول الى مملكته . وبعد مدة من الزمن أخبرت سنت جون فيلبي بما كان قد افضى به الي الكولونيل هوسكينز . فصرف فيلبي ذلك الحديث قائلاً « انه كلام فارغ » . والحقيقة هي ان العلاقة بين فيلبي وابن سعود لم تكن أحسن منها في السابق مثل ما هي عليه اليوم ، وقد بقيت كذلك حتى كتابة هذه السطور » .

وقبل الختام لا بد لي ان اذكر ان تجزئة البحث في هـذا الكتيب ووضع العناوين قد اجريا من قبلي لتسهل على القارىء مطالعته . كما أرجو ان أكون قد قمت باخراج هـذا الكتيب والكتب الاخرى قبله كسلسلة متتابعة في تاريخ العراق الحديث ، بقسط يسير من خدمة البلاد والله هو الموفق والمعين .

بغداد ١٣٦٩ هـ
١٩٥٠ م

جعفر خياط

العودة الى بغداد

•

لقد استقبلتني في بغداد غيرترود بيل بضمة وقبلة ، وكان يسرها ان تسمع عما كان يجري في الجزيرة العربية أصدق الاخبار وأوثقها برغم انها كانت تأمل بصورة سرية ، بعد ان انتهت الحرب ، ان تبادر السياسة البريطانية الى الصفح عن ابن رشيد لتستفيد منه في اجراء توازن تجاه نفوذ ابن سعود المتعالي . اما ويلسن [1] فقد تلقاني بلطف ورقة كنجم جديد بزغ في سماء الشؤون العربية ، مع جميع ما كان في منصبه الجديد من رفعة وجلال . وقد انشغلت انشغالاً تاماً لعدة اسابيع بإعداد تقرير رسمي عن المهمة التي كلفت بها ، وبعد ذلك بأيام تقبل ويلسن تقريري قبولاً حسناً وأمر بطبعه لينشر على جميع الجهات المختصة . وفي الوقت نفسه ساهمت في إحياء ذكرى «يوم المدنة» في بغداد ، ذلك اليوم الذي سبق حلوله إعلان التصريح الانكليزي – الافرنسي المعروف في ٨ تشرين الثاني حول سياسة الدولتين المقبلة بالنسبة للبلاد العربية التي تحررت من ربقة الحكم التركي .

وقد اتفقت غيرترود وأنا اتفاقاً تاماً على ان ذلك التصريح كان تصريحاً يدعو للاعجاب من حيث السياسة الحرة التي تضمنها ، لكنه كان بالنسبة الى ويلسن [2] قنبلة حقيقية اطلقت فحطمت مقدماً الجهاز الاستعماري الجسيم الذي كان يحلم بتشميله منذ مدة طويلة على جميع بلاد الشرق الاوسط .

---

(١) السر آرنولد ويلسن وكيل الحاكم الملكي العام يومذاك .

(٢) كان ويلسن من الاستعماريين البريطانيين الذين كانوا يناوئون تأسيس حكم وطني في العراق كما لا يخفى .

ولأجل ان يسيء الى آمال الاستقلال العظيمة التي اخذت تختلج في نفوس العرب بعد صدور هذا التصريح اصدر بيانا عن سياسته هو أوضح فيه ، بعد ان أطرى وثيقة ٨ تشرين الثاني هذه الاطراء اللازم ، ان الشعب العراقي غير قادر على حكم نفسه وانه يقترح ان يبادر الى تدريبه في اصول الحكم عن طريق التشكيلات البلدية . وبذا اعلن عن قرب إجراء الانتخابات للمجالس البلدية في المدن المهمة ، تلك المجالس التي سيكون لها رئيس ونائب رئيس وسكرتير من البريطانيين بينما يكون للأعضاء المنتخبين الحق التام في البحث والمناقشة من دون ان يكون لهم حق التصويت ! ثم بادر في الوقت نفسه ، من دون ان يستشير « الوايتهول » الى توسيع حدود العراق ليضم اليه منطقة الموصل التي كانت ما تزال في حوزة الاتراك غداة إعلان الهدنة . فبعث ليجمن [1] لمفاوضة الحاكم التركي [2] والقائد ، كما اعطيت التعليمات الى القائد الانكليزي المحلي ، من قبل الجنرال مارشال الذي تولى القيادة بعد وفاة [3] الجنرال مود في اواخر ١٩١٧ ، ليدعمه (يدعم ليجمن) بالقوة إن اقتضى الامر . فسلم الاتراك الموصل محتجين ونفذ ويلسن ما كان يرتئيه . حيث ان ويلسن كان عازماً على الاستيلاء على اكثر ما كان في وسعه الاستيلاء عليه طالما كانت الفرص مؤاتية بصرف النظر عن وجود مؤتمر الصلح او عدم وجوده .

---

(١) كان ليجمن اول حاكم سياسي عين في الموصل .

(٢) علي احسان باشا .

(٣) قضى الجنرال مود نحبه في بغداد مساء يوم ١٨ تشرين الثاني١٩١٧ بعد ان اصيب بالهيضة (الكوليرا) التي لم تمهله غير أيام معدودة . وقد أظهر التحقيق ان عدوى الهيضة قد اصابته من الحليب الذي تناوله مع الشاي في حفلة مدرسة الأليانس الاسرائيلية التي اقيمت مساء يوم ١٤ تشرين الثاني.

ويذكر السر آرنولد ويلسن في كتابه المشهور ، بمناسبة وفاة مود ، ما يلي : « وكان مثله كمثل الاسكندر الكبير ، الذي توفي في بابل سنة ٣٢٣ قبل الميلاد ، والامبراطور الروماني جوليان الذي مات في سامرا في ٣٦٣ بعد الميلاد ، حيث انه استولى على اراضي العراق الناكرة للجميل فأصبح فريسة لها» .

ولم يكن لي شأن في هـــذه الشؤون ، لكن موقف ويلسن العام ، وخاصة تجاه التصريح الانكليزي - الافرنسي ، لم يحسّن لي الرأي للخدمة في العراق تحت رئاسته . وقد فكرت كذلك باني ربما اكون اكثر تمكناً من التأثير على ما جريات الاحوال اذا عدت الى انكلترة ، فلم يمانع ويلسن اقتراحي بأخذ الاجازة التي أستحقها .

وفي طريقي الى البصرة أعددت مذكرة طويلة تناولت فيها الخطوات العملية التي يجب اتخاذها في الاستفادة من التصريح الانكليزي - الافرنسي في العراق . فبعثت نسخة منها الى ويلسن الذي تجاهلها ، كما سلمت نسخة أخرى الى « المكتب العربي »[1] عندمـــا كنت انتظر الباخرة في مصر ، لكنها فقدت حسبما يظهر . ثم قدمت النسخة الثالثة عند وصولي الى انكلترة الى « وزارة الهند » التي حفظتها فلفها النسيان . ولم تسلم من يد الحدثان الا نسختي الخاصة ، واني اعتقد ان ويلسن لو كان عمـل بموجب مقترحـاتي لكان في وسعه ان يصيب شهرة عظيمة كواحد من أشهر اداريي بريطانية واعظمهم سمعة .

وعلى كل ، فقد وصلت انكلترة في كانون الثاني ١٩١٩ بعد مدة تزيد عـلى العشر سنوات من المنفى في الشرق ، ومما سرني ان اليوم الذي وصلت فيه كان يشبه اليوم الذي رأيت فيه انكلترة لأول[2] مرة عـام ١٨٩١ ، حيث كانت السماء تجود برذاذ خفيف من المطر كانت مصابيح « شارع كروموبل » تبعث بهالاتها الشبحية من خلاله . وبعد ان تناولت عشائي في تلك الليلة سرت في الطريق تحت المطر لأتحسس نقره المترقـق على خديّ .

وقد أشغلت قسماً كبيراً من وقتي خلال هذه المدة زياراتي الى « وزارة

(١) وهو المكتب البريطاني الذي أسس في القاهرة لتولي الشؤون العربية.
(٢) كان المستر فيلبي قد ولد في سيلان ثم ذهب مع والديه الى انكلترة وعمره ست سنوات .

الهند » و « وزارة الخارجية » حيث وجدت غاربيت وهيوبرت يونغ على التعاقب يشغلان منصب الخبراء في شؤون الشرق الاوسط ، والى « الجمعية الجغرافية الملكية » . وقد جرت لي مقابلات مع أدوين مونتيغيو واللورد كرزن ، وقضيت جميع مـا تيسر لي من الوقت اشتغل اشتغالاً جديـاً باحضار خرائطي عن الجزيرة العربية في « الجمعية الجغرافية » التي ساعدني وساعد زوجتي سكرتيرها ا. ر. هينكس في ايجاد دار مناسبة لنا ، كان هو وأهله قد اخلوها قبل مجيئي ، في محلة سنت بيترسبرغ – وهذه حلقة اخرى من حلقات أيام طفولتي . وقد انشغلنا بترتيب البيت وتأثيثه ، كما كان علي أن اعدّ اولى محاضراتي في « الجمعية الجغرافية » و « جمعية آسية الوسطى » . واستبان بان كل شيء يسير سيراً مُرضياً ، برغم ان مستقبلي كان شيئاً غامضاً جداً . فبعد ان اشتغلت في العراق وجزيرة العرب لم تكن لي رغبة في العودة الى الخدمة المدنية في الهند التي كان في وسعي ان اعود اليها على الدوام . وقد عزمت في الوقت نفسه ان لا اعود الى العراق وجزيرة العرب مـا لم تسر الحكومة البريطانية في الشرق الاوسط بموجب السياسة الـتي كنت أراها شيئاً معقولاً . وفي طريق عودتي الى الوطن تسلمت في مصر برقية من ويلسن يطلب اليّ فيها ان ازور سورية بالنيابة عنه واقدم تقريراً عن التطورات التي كانت تحدث هناك والـتي كان يمكن ان تؤثر تأثيراً خطيراً على العراق ، غير انني تصنعت التعب والملل وتملصت من الانصياع لذلك . وفي وقت متأخر من السنة نفسها كان قد دعاني ، بواسطة وزارة الهند ، للاشتغال في « تسوية الارض » في احدى مناطق الفرات ، لكنني رفضت هـذا الطلب ايضاً مبيناً عدم موافقتي على السياسة المتبعة في التسوية في جميع البلاد ، التي اتخذهـا ويلسن ومستشاروه . ولم أدعَ للاشتراك في « مؤتمر الصلح » الذي كان من نصيب فيصل ولورنس ان يسيّرا لوحدهما فيه سياسة البلاد العربية وبلاد الشرق الاوسط الأخرى . ولم ترق لي ، بوجه عـــام ، ماجريات الاحوال كلها

لكنني كنت عاجزاً عن احداث أي تأثير في تطور الامور وسيرها لان وزارة الهند كانت تؤازر خطط ويلسن الاستعمارية في العراق بينما كانت وزارة الخارجية تلتزم الملك حسيناً وفيصلا .

قضية الخرما [1]

وبعد ذلك تسلمت ، بصورة غير متوقعة ، في حوالي منتصف مارت عوة برقيـة مستعجلة لحضور مؤتمـر دائري لشؤون الشرق الاوسط يعقد ي وزارة الخارجيـة . وفي غرفـة الانتظار هناك وجدت جمعاً حافـلاً ن الجنرالية والأميرالية ووكلاء الوزارات مع هيوبرت يونغ سكرتـيراً لمؤتمر . ثم دعينا بعد ذلك في حضرة اللورد كرزن ، فوجدت مونتيغيو لى جانبه . فافتتح ذلك الرجل العظيم الاجتماع بدماثته التي لا تجارى . كان موضوع البحث المشكلة في الخرما . ففي خلال السنة التي كنت ضيتها في الجزيرة العربية كتبت اربع مرات عن الحركات الاعتدائية التي كانت تقوم بها القوات الشريفية ضد هـذه الواحة التي دافعت عن نفسها جاح في كل تجاوز كان يحصل عليها . وفي المرة الاخيرة أنذرت من ل ابن سعود ، فأنذرت بدوري الحكومة البريطانية بان اي تعدٍ سيحدث عد هذه المرة سيدفع ابن السعود الى تجريد قوة تلقي على المعتدين درساً سياً على وجه التأكيد . فأوقف الملك حسين عند حده ، لكن صبره بد قارب النفاذ الآن فطلب بصورة جازمة ان تقوم الحكومة البريطانية سوية هذا النزاع على الحدود في صالحه ، ثم هدد بمهاجمة الموقع اذا رفض لبه . وبذا فقد كان الوضع ينذر بشر مستطير . على ان اللورد كرزن يشرح الموقف الى الجمع الحافل من الموظفين الكبار على هذه الصورة . يث قال « ان الموقف هو اننا كنا قد وعدنا الطرفين بتسوية النزاع لحاصل بينهما . وها ان الحسين يلح الآن على اجراء التسوية كما يحق له

(١) الخرما هي الموقع الكائن على حدود الحجاز ونجد الذي اصطدم فيه الجيش الشريفي هابيين فدحر على أثر الاختلاف بين الملك حسين وابن السعود بشأن الحدود .

ان يفعل ذلك . وقد درست الحجج التي قدمها الطرفان درساً وافياً ؛
وان المستر فيلبي كان شرح الموقف لابن سعود بنفس البراعة التي كانت
تتطلبها رغبة ابن سعود . وهناك في الحقيقة مجـــال للاختلاف في الرأي
بالنسبة للقضية نفسها ، لكن الامر اصبح يتطلب الحل ، والمشكلة هي مشكلة
سياسة لا مشكلة القضية نفسها . حيث ان سياستنا في جميع القضايا العربية
هذه هي سياسة حسينية ، ولا نرانا بحاجة لمناقشة الأسس التي تبنى عليها
لكنها مع ذلك هي شيء اكثر من مشكلة سياسية . حيث انها قضية لياقة
وأهلية ايضاً . واننا يجب ان نقتنع بان صاحبنا سوف يربـــح اذا ادى
الامر الى التصادم اذا حسمنا المشكل في صالحه كما يحلو لنا ان نفعل
والا وان العواقب ستكون خطيرة حقاً » . ومع هذا الحديث طلب رأي
الأميرالية والجنرالية الذين صرخوا على نسق واحد قائلين ان شرذمة من
الوهابيين المتعصبين الجفاة لا يمكن ان تقف وقفة طويلة في وجه جيوش
الحجاز النظامية المدربـة تدريباً بريطانياً والمجهزة تجهـيزاً بريطانياً بالسلاح
البريطاني .

وبعد ذلك دعيت انا لأبدي رأيي ، فتشجعت وهاجمت رأي الخبراء
العسكريين الاجماعي . فقلت انه : « لا يوجد احد هنا من رأى القوات
الوهابية او درس حالتها ، ولا يسعني الا ان اقول من دون محاباة بانني
ارى ان الموقف اذا ادى الى التصادم ، وانا اعتقد انه سيؤدي الى ذلك
اذا قررنا شيئاً ضد ابن سعود ، فان الوهابيين سوف لا يجدون اقل صعوبة
في قهر القوات الحجازية » .

« شكراً ، مستر فيلبي » اجابني الرجل العظيم بلطف ، ثم استطرد
فقال : « ان رأيك سينظر فيه ، لكن مناقشات قضايا كهذه لا يمكن ان
تجري الا على اساس الاكثرية ، وانك ترى انك لا تكوّن الا اقلية ضئيلة »
فأجبته « نعم سيدي إني أقدر ذلك » .

ثم تابع كلامه : « اذن فالقضية منتهية . حيث ان خبراءنا العسكريين

أشاروا باننا في وسعنا ان نتابع السير بموجب الخطة الموضوعة من قبل ، وعلى هذا فان قرار هذا المؤتمر هو ان الحسين سوف يخول رسمياً باحتلال المنطقة المنازع عليها التي حُكم اليه الآن بها . ويجب ان يُخبر ابن سعود الامر بالطرق المألوفة مع انذاره بان أية محاولة تبدر منه في المقاومة سوف تؤدي الى استياء حكومة صاحب الجلالة الشديد ، وان المنحة المالية التي يتقاضاها الآن على الاخص سوف يوقف دفعها في الحال اذا لم يقبل قرارنا . ويجب اصدار التعليمات المقتضية حالاً . وهناك شيء آخر لا بد من التطرق اليه ، وهو انني متأكد ان المؤتمر قبل ان ينفض اجتماعه يود ان يستمع الى رأي المستر فيلبي عما يؤمل ان يحدث عندما يتسلم ابن سعود هذه الاوامر » .

فقلت : « انني ، يا سيدي ، لا يخامرني أي شك بان الكتاب حالما يصل الى الرياض فان ابن سعود سيبادر الى تعبئة قواته في الحال فيسير الى الدفاع عن الخزما . حيث انه كان قد وعد بذلك ، وسواء دفعت اليه المنحة المالية أو قطعت عنه فانه سوف يبر بذلك الوعد . وقد سبق ان أبديت لكم برأيي في النتيجة المحتملة الوقوع » . وقد انفض المؤتمر في جو من الصفاء العام ، بعد ان سُخف رأي المدافع عن الشر ، وكان الجميع يعتقدون باني كنت مخطئاً . فرددت « انشودتي » العربية الاخيرة ، في طريق عودتي الى البيت توصلت الى قراري حول المستقبل الذي أيدتني به زوجتي . حيث قررنا الرجوع الى الهند في تشرين الثاني ، وفي الوقت نفسه وجب علينا إيجاد مدرسة ابتدائية مناسبة نضع فيها ولدنا البالغ من العمر سبع سنوات . وقد اشتغلت اشتغالاً متواصلاً بالمادة الجغرافية المتوفرة لدي حتى بداية شهر مايس ، عندما اغلقنا بيتنا في لندن وتوجهنا الى ستبورن حيث مكثنا شهراً واحداً فتشنا فيها عن مدرسة مناسبة . وفي صباح يوم الاثنين في منتصف الشهر تسلمت رزمة من المكاتيب كان قد بعثها اليّ طباخنا الذي كان يمر بدارنا في لندن بين حين وآخر .

فكانت بينها برقية مؤرخة بتاريخ الجمعة الاخيرة تنص على ما يلي : « ان
حضورك مطلوب عاجلا ، يعقد مؤتمر الدوائر في الخامسة من بعد ظهر اليوم ،
وزارة الخارجية – يونغ » . وعندما فاتني حضور المؤتمر على هذه الشاكلة
حررت كتاباً الى يونغ أوضحت فيه سبب تغيّبي وعبرت عن أملي بان
كل شيء سائر على ما يرام . وجواباً على هذا تسلمت برقية هذا نصها :
« تأجل المؤتمر بالنظر لغيابك ، القضية مستعجلة جداً ، أبرق الوقت الذي
يمكنك فيه الحضور » . فأبرقت رداً على ذلك بما يلي : « سوف أحضر
إلى وزارة الخارجية في الخامسة اليوم الثلاثاء » .

وفي غرفة الانتظار وجدتهم مجتمعين كلهم ، الجنرالية والاميرالية والباقين
وفي أوجههم إمارات الخطورة . وعندما كنا ننتقل الى مجلس اللورد
كرزن قال أحدهم : « الظاهر اننا لعبنا الجواد الخاسر » . وقد افتتح
اللورد كرزن المؤتمر قائلاً : « لقد اجتمعنا هنا قبل شهرين وتوصلنا الى
قرارات اتخذ ما يلزم لتنفيذها . ونجتمع الآن للنظر في نتائج ما عملنا
تنفيذاً لتلك القرارات . فان الحسين بعد ان خولناه ، بعث بجيشه بقيادة
ولده عبدالله لاحتلال الخرما . وقد خابت استطلاعاته في اكتشاف ما يدل
على وجود أي تحشد وهابي او على اتخاذ أي عمل مقابل . غير انه
الساعات المبكرة من يوم ١٩ مايس انقض الوهابيون بقوة من جميع
الجهات على معسكره . ففر عبدالله [١] وضباط اركانه على ظهور الجياد

(١) وزيادة في الايضاح رأيت من المناسب أن أورد في هذه الحاشية فصلا صغيراً من كتاب
« مذكرات الملك عبدالله » عنوانه « معركة الخرما ـ الملحمة التي غيرت معالم النهضة العربية
ونتائجها » . فيقول :

تلقيت أمراً من جلالة الملك حسين بان أرجع بالجيش الشرقي الى الطائف لتأديب الشريف خالد
ابن لؤي بوادي الخرما، وكان الشريف خالد هذا اعتنق المذهب الوهابي وطرد قاضي الخرما الشرعي
وقتل الابرياء كما قتل الشريف بعيجان شقيقه لانه لم يطعه على فساده ، ثم اخذ يغير على من لا
يدخل في هذا المذهب من العشائر التابعة للمملكة الهاشمية الحجازية .

وكان المرحوم قد وجه الشريف حمود بن زيد بقوة تأديبية الى الخرما فلم يستطع عمل شيء
ثم وجهه مرة أخرى فغلب وجرح ، فامددته وانا بوادي العيص بقوة كافية بقيادة المرحوم الشريف

الى الطائف ، وقُضيَ على بقية جيشه . هذا ما كان من ناحية القتال .

شاكر بن زيد فذهب بها وبعــد تلكؤ بعران توجه الى الخرما ونزل بشرقيها في الوادي نفسه فهوجم وهو في منزله وغلب كما غلب الشريف حمود قبله . فجهز الملك المرحوم قوة أخرى وبعث بها معه ومع الشريف الامير عبدالله باشا بن محمـد بن عبدالله بن عون فبقيت هذه القوة ...

قلنا تلقيت امراً بان اتجهز حالا وان أقصد الخرما رأساً من المدينــة المنورة فحاولت منع ذلك لاسباب اولهـا ان الناس سئمت الحرب ضــد الاتراك وان الجنود المأجورين أثروا وامتلأت جيوبهم ولم تعد لهم رغبة في حرب أو جلاد .

فاستأذنت باني أحب القدوم الى عشيرة ـ وهي ماء شمال الطائف وبهــا آبار عذبة على طرف الحرة في حــد سهل من جبل ـ لابعث بالانتقال واتشرف بلثم اليد الملكية ، فوافق رحمه الله ... ولما وصلنا الى عشيرة وجدت المرحوم هناك فسر بما رأى من قوة ومعدات . وكنت عرضت على جلالته في كتاب قبل وصولي باني ارى لزوم تأخير هــذه الحركة زيادة للتبصر وتمحيص الأمر فاجابني رحمه الله بجواب عرفت منه عزمه ، وهو قوله : « يجب عليك ان تتوجه الى الخرما للقضاء على هذه الحركة الفسادية ، وان معك من القوة ما لو قاتلت بها كل العرب لتغلبت عليهم » . ولو علم جلالته حقيقة ما أعرف لكان من الرأي على غير ذلك ... كنت اؤمل انني سأصرفه عن عزمه . فلما اختليت به وعرضت عليــه رأيي غضب غضباً شديداً وقال : هذا رأي ام عصيان ؟ فقلت : أعوذ بالله من المعصية والعصيان ولكنها النصيحة فانني عالم بنفسية الفريقين. فقال : اذن ان لم تفعل ما آمرك به فأنا متخل عن الملك . فاستعذت بالله وقلت : انني فدى لكم ولرغبتكم وانني ذاهب حسب إرادتكم . وكنت وكأني انظر الى مصارع القوم بعيني فاضفت قائلا : سأصدع بالامر واسأل الله لجندكم الظفر ولنفسي الشهادة .

فعاد رحمه الله الى مكة وتوجهت بالقوة التي معي الى البديع .. فأقمت واخــذت ابعث مستطلعاً للعدو ، واذا بأمر سام يردني يأمرني بالقدوم حالا ، وفيه انه اذا لم تنفذ ما امرنا به فتكون التبعة عليك ... وبعد التشاور مع من اعتقــد في اخلاصه من الرؤساء رجحت الاستيلاء على مدينة تربة وحصنها المعروف برمادان وهو الذي انكسرت فيه وأبيدت عن آخرها القوة المصرية في حركة الوهابيين الأولين .

فتحركت بالجيش صباحاً وامسيت بالقرب منها ، وفي اليوم الثاني ضربت وافتتحت ... ثم مضت أيام واذا بجموع الوهابية تصل الى الخرما وتجتازهــا الينا . واغارت خيلهم على سرحنا وتقابل الخيلان وقدر الله فطردناهم . وبعــد ليال ثلاث جاءوا بجموعهم يجرون الحجر والشوك ، وهم عشائر مطير الدويش ومن معه وعشائر حرب أهل نجد وعشائر عتيبة وعلى رأسها سلطان بن بجاد الملقب بسلطان الدين وعشائر أهل الوديان ، يزاحمون الخمسة والعشرين الفاً .

وكانت القوى التي معي من حيث قوة النار لا بأس بها ، واما المدد فكان الجند النظامي خمسمائة والجند من اهل الحجاز والارهاط المكتوبة ثمانمائة وخمسين .

فصبحونا بالخرما وكانت الملحمة ، فاستشهد من الاشراف ثلاثة وخمسون في صفنا ، ولم ينج

اما من النواحي الاخرى ، فان وكيلنا في جدة يخبرنا بانتشار الرعب والفزع هناك وفي مكة والطائف حيث اخذ السكان يتقاطرون منها الى جهة الساحل ، وفي ضمنهم (١١٫٠٠٠) من رعايا بريطانية الهنود . وهو يخبرنا ايضاً ان الوهابيين يتقاطرون شرقاً معقبين عبد الله تعقيباً سريعاً والمتوقع ان يصلوا الطائف ومكة عاجلاً . وهو يأمل تفشي الامراض الوبائية بين اللاجئين المزدحمين في جدة ، حيث يشح الماء وتنعدم الترتيبات الصحية . وعلى هذا فانه يطالب على الاقل بحماية اللاجئين العسكرية وبارسال البواخر لنقلهم الى اوطانهم بأسرع ما يمكن . هذا هو ، ايها السادة ، الموقف الذي يتحتم علينا النظر فيه ، ولا نعلم مقدار التدني الذي طرأ على الموقف منذ الوقت الذي بعث فيه البرقية قبل ستة ايام . وعلى هذا ماذا في وسع الاميرالية ان تصنعه لنا فيما يختص بالبواخر اولاً ؟ » وعندئذٍ تكلم الاميرال الاقدم قائلاً : « لدي تعليمات بان اوضح للمؤتمر انه بالنسبة لقلة البواخر المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر ليس في وسعنا تهيئة حتى ولا باخرة واحدة لهذا الغرض ، فكيف بنا وهذا الامر يحتاج الى دزينة من البواخر او ما يقارب ذلك » . فرد اللورد كرزن بقوله : « اذن ماذا في وسع وزارة الحرب ان تفعله لنا ؟ حيث لا يمكن ان ندع هؤلاء الناس يذبحون بدم بارد من قبل الوهابيين » . فرد على ذلك احد الجنرالية قائلاً : « اني اخشى اننا لا يمكن ان نفعل شيئاً يا سيدي الجليل حيث ان وزارة الحرب عازمة عزماً تاماً ان لا تورط نفسها بعد هذا في اية مجازفات عسكرية في الجزيرة العربية . لاننا عندنا ما يكفي من هذا

من النظاميين الا ثلاثة ضباط هم الاميرالاي صبري بك والقائد ابراهيم الراوي والقائد حامد الوادي ، وسلم من القوة العربية الحجازية مائة وخمسون رجلا . اما هم فلم يبلغوا منا ما أرادوا الا بعد ان انزلت فيهم خسائر في الارواح فادحة وعلى ما قيل لي ان عدة من دخل العدة من نسائهم في الارطاوية ـ قرية ـ كن سبعمائة وخمسين امرأة ، هذا في قرية واحدة . وقد بلغني ان راية اهل الرين لم يرجع منها سوى ثلاثة أفراد . وكانت قتلاهم فوق السبعة آلاف ، والحول والقوة بالله وكانت نجاتي منهم معجزة من المعجزات .

القبيل الآن » . وعند ذاك قال الرجل العظيم : « يظهر اننا لا نتمكن من عمل شيء مطلقاً لأولئك الناس . والآن هل في وسعك يا مستر فيلبي ان تساعدنا في شيء ؟ فأن رأيك فيما كان يحتمل ان يحدث من التطورات ثبتت صحته تماماً بجميع ما كان فيه من تعضيل » . وقد كان في حديثه اكثر اطراءً من ذلك بالفعل كما كان سخياً للغاية ، شانه في ذلك شأن العظماء الحقيقيين فقط . فرددت عليه بقولي : « انه ليس هناك أي مجال للذعر والهلع قبل كل شيء . حيث انني لا اعتقد ان الوهابيين يعقبون انتصارهم الآن » . فبانت عليه سورة الغضب ، لكنه ضبط اعصابه ليقول : « ارجوك مستر فيلبي لا تكن أحمق » — اظن انه تفوه بهذه الكلمة ، او كانت شيئاً من هذا القبيل على كل حال — « حيث ان تقرير وكيلنا يشير الى هذا ، ومن المؤكد ان الوكيل البريطاني هناك يجب ان يعلم عما يقع هناك بالفعل اكثر مما يمكنك معرفته » . فرددت عليه بجرأة : « كلا ، فانه لا يستطيع معرفة غير ما يخبره به الملك حسين ، ونحن ادرى بمقدار الثقة التي نضعها في مثل ذلك . كما ان اقوال اللاجئين لا يُعتمد بها — حيث لم ير احدهم وهابياً واحداً . وانني ما زلت على اعتقادي ان الوهابيين لا يقومون بعمل آخر بعد انتصارهم هذا . ولأبن سعود سيطرة تامة على رجاله ، وهو اعقل من ان يضع نفسه في موضع يخطىء فيه معنا بمهاجمة الحجاز » .

فأجابني بقوله : « ان هذا لا يساعدنا مطلقاً يا مستر فيلبي ، لاننا يجب ان نعمل بموجب المعلومات التي بعث بها الينا الرجل الموجود هناك بالفعل ، وان الوهابيين بالنسبة لما عندنا من المعلومات ربما يكونوا الآن في مكة أو على أبواب جدة » . فرددت على ذلك قائلاً : « انه لنفرض انهم يتقدمون الآن فاني معتقد بانه من السهل علينا ان نقنعهم بالتوقف أو بالرجوع الى خارج الحدود . فاستفهم بقوله « كيف ؟ » مع شيء من الحدة في نبرات صوته .

فكان جوابي : « ان القرار الذي اتخذ في اجتماع هذا المؤتمر الأخير يجب أن يُقلبَ قبل كل شيء ، ويجب ان نوافق على ان يسمح لابن سعود بان لا يأخذ الخرما فقط بل ان يأخذ التُربة ايضاً الـــتي استولى عليها الآن والتي سوف لا يتنازل عنها . واني اتكفل انه سوف يكون مقتنعاً بذلك . فاذا وافقتم على ذلك فليس عليكم سوى ان تبعثوا رسولاً اليه ، وسوف ينسحب عن الحجاز على وجه التأكيد » .

فرد عـــليّ بقوله : « لكن الوقت أضيق من ان يسمح بارسال اي أحد اليه ، وربما يقوم الوهابيون الآن بذبح الناس في مكة وجدة » .

فكان جوابي : « ان في وسع الكولونيل ويلسن ان يذهب لمواجهته من جدة ، أو ان طيارة يمكنها ان تأخذ رسولاً من هنا ليصل الى هناك في ظرفية يوم واحد أو يومين » .

وعند هذا اخذ يفكر عدة ثوانٍ ثم قال : « هل انت مستعد للذهاب ؟ » ، فقلت : « نعم سيدي ، بكل تأكيد » . ثم استفهم قائلاً : « متى تكون مستعداً للذهاب ؟ » فكان جوابي : « انني مستعد للذهاب الآن » . وعندئذٍ أجاب قائلاً : « ان هـذا هو الأمل الوحيد ، واذا وافـق المؤتمر سيقوم الميجر يونغ باحضار الطائرة اللازمة لتأخذ المستر فيلبي في الحال . اتمنى لك الموفقية يا مستر فيلبي » .

وبناء على هذا اتخذت الترتيبات اللازمة لتطير إحـــدى الطائرات يوم الجمعة الى القاهرة أولاً حيث يتحتم عليّ مقابلة الجنرال اللنبي ، الذي أصبح الآن مندوباً سامياً ، للتزود بتعليمات أُخرى . وقـد علمت خلال الفترة ان الجـــنرال اللنبي صدرت اليه التعليمات بارسال سرب مؤلف من ست طائرات الى جدة لاستخدامها اذا دعت الحاجة لذلك ، كما أرسلت التعليمات الى ويلسن في بغداد ان يبرق بوجوب قطع المنحة الشهرية عن ابن السعود . وقد سررت كثيراً بتبدل الحكم تبدلاً رسمياً بشأن النزاع على الحدود بحيث لم اجد مجالا للقلق من جراء هذه المشاكل الطفيفة التي يمكن ان تعالج فيما

بعد ، وبطبيعة الحال كنت مسروراً لفكرة عودتي الى ابن سعود .

السفر الى جدة

وقد رافقتني زوجتي الي ليمين ، غير ان الامطار المدرارة حالت دون تحركنا بالطيارة يوم الجمعة . على اننا ذهبنا الى المطار يوم السبت فوجدت إحدى طائرات « هاندلي بيج » التي صنعت سابقاً لقصف برلين ، بانتظاري بقيادة طيارين كنديين ، هما فينس وغراي ، سألاني فيما اذا كنت أمانع محاولتهما ان يجعلا من السفرة سفرة ضرب الرقم القياسي في الطيران . فكان جوابي اليهما : « انني كلما وصلت القاهرة ساعة اقدم كان ذلك اكثر فائدة اليّ » ، وبذا حلقنا في الجو .

وبرغم الهبوط الاضطراري فيما يقرب من باريس وما ترتب على ذلك من التأخير ضربنا بسهولة الرقم القياسي السابق للكابتن مكلارن في رحلته بين انكلترة والقاهرة التي قطعها في خمسة عشر يوماً ، لاننا قطعنا المسافة في مدة خمسة ايام (٣٦ ساعة طيران) عن طريق باريس وليون وايستر وبيزا وروما وتارانتو وباتراس وآثينة وخليج سودا (كريت) والسلوم . وبقي ذلك الرقم القياسي مدة سبع سنوات حتى سنة ١٩٢٦ حين قطع المسافة الكولونيل مينچن في ثلاثة أيام . ومنذ ذلك الحين حتى الآن حدثت بلا شك تطورات لا يستهان بها في هذا الشأن .

وقد اخبرت جميع المطارات قبل وصولنا برقياً بوجوب منح الأفضلية الى « ممثل من السلك الخارجي مسافر الى القاهرة بمهمة رسمية مستعجلة » ، ثم علمت في آثينة بوجود لورنس في خليج سودا مع بقايا محطمة لعدة طائرات من طراز « هاندلي بيج » كانت قد تركت انكلترة متوجهة الى مصر في شهر نيسان . حيث ان طائرته كانت قد تحطمت بالقرب من روما فقتل في الحادث اثنان من الركاب ، بينما انكسر عظم ترقوته هو واصيب آخر اصابة خطيرة — اما الاثنان الباقيان من الركاب فقد خرجا من دون اذى . وبينما كان لورنس ينتظر مجيء طيارة تقله من محل انتظاره

اغتنم الفرصة فقام بسياحة في جزر الارخبيل في سفينة يونانية صغيرة . وعند وصوله الى خليج سودا قُدمتُ اليه ، فأخذني جانباً الى صخرة تطل على الخليج الجميل ليبحث معي « مهمتي المستعجلة » .

وقد كان يجهل تطورات الشؤون العربية الاخيرة فأنصت باهتمام زائد الى روايتي التفصيلية عنها ، معلقاً باستهزاء – لم يكن يود الملك حسين – وقائلاً بين حين وآخر « حسن ، حسن » و « ممتاز » . والظاهر انه كان معجباً بمعلوماتي عن الشؤون العربية ، لانه التفت اليّ في الأخير قائلاً : « هل لي ان اسأل من انت ؟ » فأجبته : « انا آسف ، كنت اتصور انك تعرف من انا – انا فيلبي » . فرد عليّ بقوله : « آه ، انت فيلبي ، اليس كذلك ؟ » كأن نوراً اشرق عليه .

وكانت تلك مقابلتي الاولى مع لورنس ، لكنني قُدّر لي ان اراه كثيراً بعد ذلك في السنين التالية طالما كان متصلاً بشؤون الجزيرة العربية .

وفي هذه المناسبة وافقت بسرور على اقتراحه بان اصطحبه معي الى القاهرة حيث بقي كلانا في « المقيمية » ضيفين من ضيوف اللنبي الذي كان مرافقه الأقدم يومذاك الكابتن هـ. ر. ل. ج. اليكساندر . وكانت الليدي اللنبي على مائدة الطعام ، وعلى جانبيها لورنس وانا ، كثيراً ما تستولي عليها الحدة بالنظر للمناقشات الحادة التي كانت تجري بيني وبين لورنس حول مزايا رجال العرب ، بينما يهرع اليها اللنبي من طرف المائدة المقابل طالباً اليها تهدئتنا . وكان اللنبي في المناقشات الخطيرة التي تجري بيننا يقبل برأيي ان الطيارات التي ارسلت الى جدة اذا قصفت الوهابيين واضطرت للنزول بينهم سوف يذبح الطيارون حتما ، وقد اصدر الاوامر العاجلة حتى بعدم اخراج الطيارات من صناديقها وشدها .

وكان اول خبر تلقيته في القاهرة بطبيعة الحال ان الوهابيين لم يحاولوا مطلقاً ان يعقبوا الجيش المنهزم الى ما وراء تُرَبة ، كما ان ابن سعود ، الذي اوصى قواده باتخاذ موقف دفاعي بحت ، قد سحب قواته الى

الرياض . وعلى هذا فان الاستعجال في مهمتي قد تلاشت اهميته – فكان ذلك شيئاً مُرضياً جداً لي – ولم تقرر وزارة الخارجية الا بعد مدة من الزمن ان اتابع سفري الى جدة بالباخرة ، وان اعود من هناك الى ابن سعود بطريق البر . وقد واجهت في الوقت نفسه الكولونيل ه . ف . جاكوب غداة سفره الى صنعاء . فسألته خلال حديثي معه عن اي نوع من اللباس سيرتدي خلال رحلته هذه ، فأجاب بلهجة تكاد تكون جازمة : « البزة العسكرية كضابط و « جنتلمان » بريطاني ، يا مستر فيلبي ، ومع حاشية من الخيالة الهندية » . فأجبته : « اذن فانني اعتقد انك سوف لا تصل صنعاء مطلقاً » . فاستهزأ بمثل هـذا الرأي ، غير انه لم يصل الى هناك بتاتاً . حيث ان قبيلة َقهرَة وقفت في طريقه في باجل ، وبعـد حصار غير مريح دام عدة اسابيع سمح له بالعودة الى الحديدة .

ولم أصل الرياض انا ايضاً ، لكن ذلك كان لسبب آخر غير هذا . لان الباخرة عندما وصلت جـدة أُخبرت ان الملك حسين ، الذي استعاد روعه بعد الرعب الذي أصابه على اثر الحادث ، امر بكل عجرفة بمنعي من النزول الى البر . وقد تقضت أيام ثلاثة في مفاوضات غير مجدية في هذا الشأن كان يقوم بها سي . أي . ويلسن بصورة تكاد تكون فاترة . وعلى اثر ذلك صدرت اليّ التعليمات بالعودة الى مصر فلندن . وبذا انتهت تلك المغامرة ، برغم انني كنت مغتبطاً لعلمي ان ابن سعود قـــد ربح الجولة الاولى في طريقه الى زعامة الجزيرة العربية .

مع فيصل السعود في لندن

وكان فيصل بن الحسين ، في الوقت نفسه ، قد نودي به ملكاً على سورية من قبل الجموع المحتشدة في الشام ، كما رُشح اخوه عبد الله ملكاً مقبلاً للعراق فأزعج ذلك الملك حسين و أ . تي . ويلسن أشد الازعاج . لأن الملك حسين وجد ان سلطته اخذت تتقلص بازدياد عن طريق اعدائه وابنائـه الطامحين ايضاً . وبالنظر للتطورات الاخيرة حورت أزماعي على

العودة الى الهند ، وفي تشرين الاول طلبت الي الحكومة ان اتولى شؤون البعثة التي طلبت ابن سعود ارسالها الى انكلترة برئاسة ولده الأصغر فيصل ، وكان الغرض منها اسمياً ان تقوم بتقديم التهاني للحكومة البريطانية بالنصر الذي احرزه الحلفاء في الحرب ، لكن الغرض الحقيقي منها كان استئناف المفاوضات حول وضعه المقبل وحول الحدود . فانشغلت بذلك مدة ثلاثة اشهر حتى حل عيد الميلاد ، كما تجولت من اجل هــذا في طول البلاد وعرضها بمــا في ذلك بلاد الغال وايرلندة ، وفي القارة الاوربية حيث زرنا جميــع ميادين القتال . فزرنا بيرز وتجولنـا بالسيارة فوصلنا الى « شمن دي دام » و « فردون » ، ومن هنـاك عبرنا الى ستراسبورغ وكولوني ، ثم انتهينا بباريس . وكان فيصل بن الحسين هناك ، لكنه رفض جازماً ملاقاة من كان معي ، ثم تركت البعثة باريس في آخر الامر الى مارسيليا في طريقهـا الى الجزيرة العربية فعدت انا الى الوطن لقضاء عطلة عيد الميلاد مع أسرتي .

وفي اثناء اجتماع عقــد في « وزارة الهند » برآسة ادوين مونتيغيو للبحث في شؤون اواسط الجزيرة العربية ذكر أحد موظفي الخزينة الكبار ، على سبيل عرض الحقائق ، ان منحة ابن سعود المالية كانت قـد قطعت عنه بأمر من الحكومة منذ شهر أيار الماضي . فتحديت تصريحه هذا معلناً انه برغم الاوامر التي صدرت من لندن بهذا المآل في أيار فان المنحة استمر دفعها شهراً بشهر منذ ذلك التاريخ . فكان وقع ذلك شديداً على اللجنة ، لكن القضية بقيت معلقة بانتظار أجراء التحقيقات فيها ، وتسلمت في اليوم التالي كتاباً من غاربيت يطلب اليّ فيه بيان الاسس التي استندت عليها في تحدي تصريح « الخزينة » في هذا الشأن . فأجبت ان استنادي الوحيد هو معرفتي ان المنحة استمر دفعهـا دون انقطاع ، ثم اضفت مبدياً ان استنادي هذا اذا لم يكن كافياً فان فيصلاً وبعثته كان ما يزال في لندن وفي وسعه ان يصادق على مقدار الصحة في قولي . وكان

ما قلته صحيحاً بطبيعة الحال ، كما ان الحكومة قررت بحكمة وتعقل بالنسبة للظروف ان لا « توقظ الكلاب النائمة » وان تستمر على الدفع لضمان سلامة الحسين – حيث ان الاستمرار على الدفع كان يعني هذا . ولم اكتشف ما وقع بالفعل في هـــذا الشأن الا بعد مدة من الزمن . فان برقيـة شهر أيار سُلمت الى ويلسن شخصياً عندمـا كان خارجاً من مكتبه للتمشي . فقرأها ثم طواها وأودعهـــا في جيبه فضيّعها . وعند ويلسن براعة في التملص من الشؤون المعوجة ليتحاشى وقوع الاضطراب . ولم تتوصل الجهات المختصة الى قرار نهائي بشأن مستقبل الخرما وتُرُبة ، غير ان وضع « الامر الواقع » لهاتين المنطقتين كجزء من ممتلكات ابن سعود لم يصبه اي تحد .

إضطراب الحالة في العراق

وكانت خططي ما تزال مشوشة حينذاك ، لكنني كانت عندي أسباب وجيهة لتأخير عودتي الى الهند . فان الاحوال كانت تدل على ان العراق كان يتمخض بالحوادث الخطيرة التي كانت تضرم نيرانها آمال الوحدة التي كانت تختلج في نفوس الحزب الشريفي الموجود في سورية ، وتغذية الملك فيصل بالمال ، الذي كان يقبضه من بريطانية ، لتلك العناصر الموجودة في العراق وعلى حدوده التي كان يعتمد عليها في إحداث اكثر ما يمكن من القلاقل لنا . كما ان حكم ويلسن الذي كان يزداد دكتاتورية كان من العوامل المساعدة على ذلك ايضاً .

وكان يرأس الدائرة التابعة لوزارة الهند المختصة بهذه الشؤون وغيرهـا جون شكبرغ السكرتير المثالي في نظر كرزن . وقد كان حاضراً في المؤتمرات التي عقدت من أجـــل البت في قضية الخرما ، كما سمحت لي الظروف ان أتصل به كثيراً بمناسبة بعثة فيصل السعود . وعندما انتهيت من هذه المهمة راجعته في نهاية كانون الاول ، وقد افضيت له اثناء تحدثي اليه بوجه عام بما يلي : « انني في الحقيقة ليس في وسعي ان أفهم ما هو

رأيكم انتم هنا بشأن ما يجري في العراق . هلا ترون ان البلاد باجمعها مقدمة على الثورة ؟ » فاجابني بقوله : « ان ما تقوله يا فيلبي لا يكاد يتفق الا قليلاً مع التقارير التي تردنا من ويلسن ، وعلى كلٍ فعلينا ان نصدق الرجل المختص الموجود هناك . واذا أعجبك الاطلاع على برقيته الاخيرة هذه فيمكنك ان تأتيني اليوم » .

والحقيقة هي ان ويلسن كان قد تجول في جميـــع مناطق العراق بالطيارة في الاسابيع القلائل الاخيرة ، وقد حياه الناس في كل مكان بحماس وتظاهر . فاقتنع بان الاهالي كانوا يرغبون في الحكم البريطاني الحازم ويحتاجونه ، بيـــنما كان اولئك الذين كانوا يؤيدون مشاغبات الشريفيين عبارة عن شرذمة قليلة لا يُعتمد بها . ولم يكن الوضع بحالة مُرضية منـذ انتهاء الحرب حتى اليوم مثل ما هو عليه الآن . لكن شيئاً من الجهد يجب ان يبذل في « الوطن » لقمع الحملة الصحفية [1] التي تدعو الى ترك البلاد والجلاء عنها . حيث ان عـــدم استقرار السياسة البريطانية له تأثير كبير على استقرار الامور في العراق .

وبعد ان أتممت قراءة البرقية قلت له : « انني أفهم جيداً انكم يجب ان تهتموا بالرجل المختص هناك وتأخذوا بأقواله ، لكن اموراً كهذه لا يمكن ان ينخدع بها أحد . حيث ان ويلسن يتعمد الاشتغال ضد روحيـــه السياسة البريطانية المصرح بها لينهك الشعور الوطني الذي يُشجع الآن من سورية تشجيعاً تاماً . وسوف لا ينتهي هذا الموضع الا بحدوث اضطراب خطير ، وليس ذلك علينا ببعيد » .

وقد حدث بالصدفة ان غيرترود بيل كانت ، برغم اشتغالها بمعية ويلسن ، تبعث بانذارات مماثلة في كتبها الخصوصية الى مونتيغيو وغيره ، كما ان ويلسن طلب عـــلى الاخص ، بعد مـدة تقارب الشهر ، استدعاءها الى انكلترة بالنظر لمشاغباتها في بغداد .

(١) كانت الصحافة يومذاك تهاجم الحكومة طالبة الجلاء عن العراق ووضع حد للمصاريف الباهظة التي كان ينوء بها كاهل دافع الضريبة البريطاني .

وقد بدأت الثورة في مايس ١٩٢٠ بهجوم شنّه على تلعفر ، الكائنة بالقرب من الموصل ، جميل المدفعي أحد ضباط فيصل الذين يُعتمد عليهم . فذبحت الحامية الصغيرة هناك عن آخرها . وانتشرت الثورة كالنار المائجة في أسفل الفرات حيث نصب كمين لفوج من لواء مانجستر فاصيب باضرار فادحة . ثم قتل ليجمن في خان النقطة . فبعث ويلسن يستقدم السيد طالب ، الذي كان في عزلته في البصرة منذ عودته من منفاه خلال ايام الحرب ليعالج مرجل الفتنة الفائر في بغداد . فقمع الاضطراب باسلوبه الخاص ، وذلك بدخوله على الجمهور المحتشد في اجتماع وطني كبير وطلب الى المجتمعين ان ينفضوا اذا كانوا يرغبون في عدم طردهم عنوة من قبله [1] . وقد كانوا يعرفون السيد طالب من قبل كما كانوا يعرفون ماذا يعني بعمله هذا . وعلى هذا بقيت بغداد هادئة بينما كانت بقية البلاد تغلي كالمرجل . وفرّق جفريس الذي كانت بعهدته كوت العمارة مظاهرة وطنية بدزينـــة من المتشردين المخنثين استقدمهم من بغداد ليقلب التجمهر الى حفلة موسيقية .

عودة كوكس الى بغداد

على ان هذه الحوادث ايقظت في الاخير « الوايت هول » من سباته المجامل . فاقتضى الامر عمل شيء في الحـال ، واستُدعي كوكس من طهران فوراً للتداول معه في لندن . وفي طريقـه الى هناك تمكن من تطمين محدثيه في بغداد والبصرة ان الحكومة البريطانيـة سوف تُحسِن حقيقة الى البلاد في هذه المرة اذا كان في وسعهم ان يتحلوا بالصبر الى ان يعود . وكان قد تقرر قبل ذلك ان يترك ويلسن البلاد حالما يتمكن كوكس من العودة من لندن كمندوب سام لتطبيق مـــا في السياسة الجديدة ، التي كانت تتكون خطوطها الرئيسية في الوايت هـول ، من

---

(١) سألنا كثيراً ممن رافق الحركة الوطنية في بغداد واطلع عليها عن هذا الحادث فلم يؤيده احد ، كما اننا لم نعثر على مثل هذا الخبر فيما كتب عن الموضوع من الكتب الاخرى . ولا يخفى ان المستر فيلبي من مؤيدي السيد طالب ومؤازريه كما سيتبين فيما يأتي من البحث .

تساهل وتحرر .

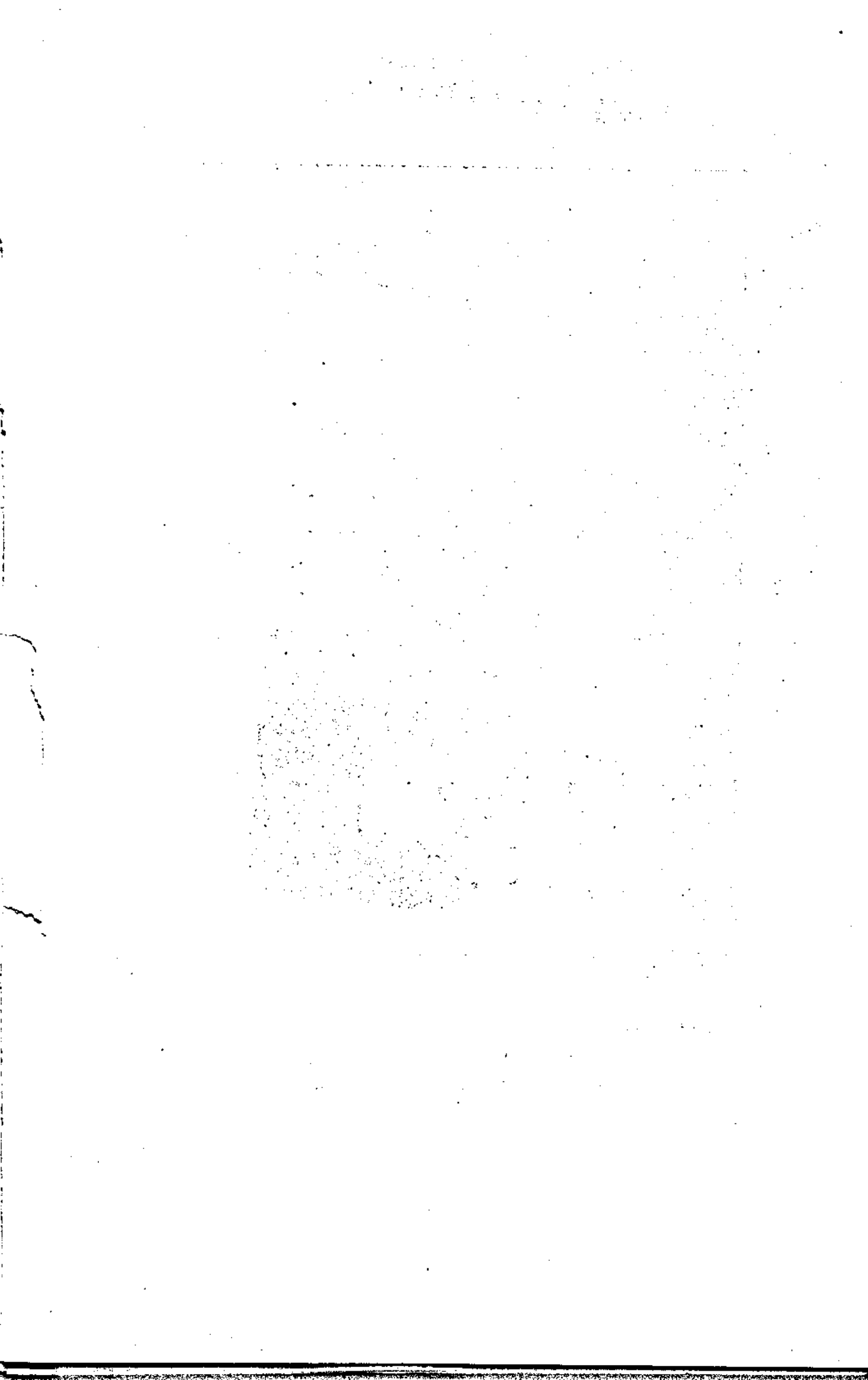
ففتحت هـذه التطورات افقاً جديـــداً بالنسبة اليّ . حيث واجهت كوكس حال وصوله لندن ، فقبل بسرور معروضي بمساعدته في مهمتـه الجديدة . وقـــد تقرر ان يصحبه الميجر آر . أي . جيزمن كسكرتير شخصي ، كما تقرر ان يذهب معه غاربيت ايضاً . وكانت هناك في الوقت نفسه شؤون كثيرة يؤمل تقريرهـــا فيما يختص بالمستقبل . فضُغط على كوكس ان يتقبل فيصلاً ملكاً مقبلاً لعراق مستقل ـ حيث انه تخاصم مع الافرنسيين فأضاع عرشه السوري في حزيران ـ وفي وسعي ان ادعي بان جزءاً من الفضل على الاقل في عدم تشجيعه على توريـط نفسه بشيء قبل استفتاء اهالي العراق يعود اليّ . حيث انني احضرت مذكرة له حول هذا الموضوع ، وكذلك حول الخطوط الرئيسية التي يمكننا ان نسير على منوالها في اجراء انتخابات حرة من اجل جمع مجلس تأسيسي تكون مهمته وضع دستور البلاد المقبل وانتخاب رئيس للدولة اذا اريد ذلك ، على ان نبدأ بحكومة نيابية موقتة . لاننا كنا قد وعدنا ان يكون العراق حراً في حل جميع المشاكل من هذا القبيل ، وكانت مشورتي باجمعها مبنية على رغبتي في ان ارى الجهات المختصة تبر بذلك الوعد باخلاص .

ولم يكن عند كوكس تحيز خاص في صالح فيصل او اي ملـــك شريفي غيره . وقد كنت مقتنعاً بان اهالي العراق سوف لا يرغبون بعاهل على هذه الشاكلة . كما ان ويلسن اجرى من تلقاء نفسه استفتاءً شبه رسمي حول الموضوع فاستخلص منه تصويتاً ضد فيصل او اي احد من اخوته بنسبة ١٠٠٪ . وفي منتصف آب تسلم كوكس كتاب تعلياته بشأن السياسة التي يتحتم عليه السير على منوالها ، وفي ٢٠ آب ركبنا الباخرة « دلهي » انا وجيزمن والليدي كوكس في معيتـه الى بومبي ، ومن هناك قصدنا بونا بزيارة قصيرة للحاكم السر جورج لويد . وفي طريقنا الى خليج البصرة على ظهر الباخرة « لورنس » وقفنا في البحرين لنذهب



معالي الدكتور عبد الله الدملوجي

وزير خارجية نجد في ١٩٢٠



بزورق بخاري الى العجير حيث كان ينتظرنا ابن سعود الذي كان على موعد مع كوكس هناك للتداول معه في شؤون الجزيرة بوجه عام . وكان في ضمن حاشيته عدد من اصدقائي القدماء ، ومن بينهم عبد الله الدملوجي [١] . وهناك جرت لي مع ابن سعود عدة محادثات خصوصية بالاضافة الى الاجتماعات الرسمية التي حضرها هـ . ر . بي . ديكسن الذي كان يشتغل يومذاك كوكيل سياسي في البحرين بعد ان اخرجه ويلسن من العراق . وقد كان سير الجلسات على غاية ما يكون من الود والصداقة ، كما كان ابن سعود الذي قلده كوكس وسام جي . سي . آي . أي . على أبهى ما يكون في شكله . على أنني أنذرته على انفراد بان يقضي على ابن رشيد ويمحوه من اواسط الجزيرة اذا كان يبغي ان يعتد عاملاً مهماً فيما تحسبه بريطانية من الحساب . حيث انني شرحت له ان ابن رشيد لا يزال عنده اصدقاء أقوياء يلتزمونه ويودون مسرورين ان يعيدوه بحيث يصبح عاملاً قوياً في حفظ توازن السياسة العربية عند الحاجة ضده هو وضد الشريف . وكان ابن سعود يعرف حقيقة ، كما كنت اعرف أنا ، ان السيد حمزة غوث كان قد وصل بغداد مندوباً عن ابن رشيد وكان بلا شك يقوم بجميع التمهيدات مع غيرترود بيل . وعلى كل حال ، لقد طمنني ابن سعود بانه كان على علمٍ بجميع دقائق الوضع الحاضر وانني سوف أسمع ان شاء الله بمرور الزمن اخباراً سارة عن إكمال المشروع الذي كنا قد بدأنا به معاً .

في البصرة

وكانت في انتظارنا في البصرة تشكيلة كبيرة من الموظفين والوجهاء على رأسهم ا . تي . ويلسن ، وأقيمت في اليوم التالي حفلة بستانية عظيمة ليتسنى لكل أحد ان يقدم احتراماته الى أول مندوبٍ سامٍ في العراق.

---

(١) كان معالي عبد الله الدملوجي يومذاك وزير خارجية ابن سعود .

وكان أبرز من في الحفلة شخصان ، هما : الشيخ خزعل بن مرداو [1] شيخ المحمرة الذي كان كوكس في ايام الحرب الأولى قد وعده باعتراف بريطانية بوضعه المستقل في عربستان الايرانية والذي كان الآن أحد المرشحين لملوكية العراق ، والسيد طالب النقيب منقذ بغداد الاخير الذي كان كوكس نفسه قد حكم عليه بالنفي [2] عن موطن آبائه مدة تقارب الخمس سنوات ، والذي كان الآن يطمع بصورة جازمة بملوكية العراق .

وفي ذلك المساء أقام السيد طالب حفلة استقبال فخمة في قصره المطل على الشط [3] ، على شرف كوكس ، حضر فيها عدد كبير من الوجهاء والموظفين البريطانيين الكبار ، وفيها اقترفت غلطة بسهو مني . اذ بينما كنا نبحث في شؤون الكويت انتقدت الاسرة المالكة فيها على أساس ان اثنين من حكامها الاخيرين تسنما الحكم بعد قتل أخويهما وقارنت هذا الوضع بالخصومة الاخوية التي كان لها تأثير سيء في تاريخ اسرة آل الرشيد . ولم اكن أعلم يومذاك ان الشيخ خزعل ايضاً كان قد قتل أخاه الاكبر ليغتصب عرشه !

وفي صباح اليوم التالي اصطف حرس الشرف على رصيف الميناء لآخر مرة في توديع ويلسن الذي استقل الباخرة « لورنس » الى الهند . وقد جرى لي حديث معه قبل الرحيل فوجدته مستاء استياءً مراً من سير الامور بوجه عام ومن نظام الحكم الجديد المقترح على الاخص ، حيث ان ذلك كان يعني انتهاء أحلامه المزوقة عن العراق كدرة لامعة في التاج البريطاني . وفي الاخير كان الأسف يغمرني عندما رأيته يرحل . حيث ان مزاياه العظيمة التي لا مناقشة فيها قد تبددت من أجل انحرافٍ بالٍ في

---

(١) ان والد الشيخ خزعل هو الحاج جابر بن مرداو .

(٢) انه يشير الى نفي السيد طالب عند اول وصول الانكليز البصرة أيام الحرب حتى سمح له بالعودة بعد انتهائها .

(٣) في السبيليات .

الرأي ، وان البناء الذي حاول تشييده قد انهار فاصبح انقاضاً بالية على مسمع منه . والخيبة من هذا القبيل لا سبيل الى الرحمة فيها . وكان يومئذ في السادسة والثلاثين من عمره ، وقد قُدّر له ان يتسنم مناصب مهمة في « شركة النفط الانكليزية – الايرانية » في الوطن والخارج قبل ان يصبح عضواً نشيطاً غير مؤثر من اعضاء البرلمان المحافظين . إلا انه لم يحقق الآمال التي كانت معقودة عليه في اوائل العقد الثالث من عمره [١].

مطامع السيد طالب

وبعد ذلك ركب كوكس وعقيلته ، وفي معيتها جيزمن وانا والسيد طالب ايضاً ، في « مركب » نهري الى الكوت . ومن هناك اكملت السفرة بقاطرة خاصة من قاطرات الخط الحديدي الجديد [٢] . وقد كنا خلال الطريق منهمكين بالاوراق والمناقشات ، وبذا كانت الرحلة فريدة في بابها . وقد جرت لي في هذا الاثناء بعض الاحاديث الخصوصية مع السيد طالب – كنت تعرفت عليه في الاسكندرية من قبل – فأسرّني خلالها ببعض من مطامعه البعيدة . وكان هدفه الصريح بطبيعة الحال ان يحصل على التاج العراقي ، لكنه قبل كل شيء كان في نفسه ان يصبح اميراً من امراء الممتلكات البريطانية ، ولم يكن يفهم لماذا لا ينعم الملك جورج الخامس عليه بالامارة اذا كان في وسع الملك حسين ان يصنع الامراء من آل لطف الله اللبنانيين ! على اني لم افشِ الاسرار التي ائتمنني بها الى اي احد وخاصة الى كوكس ، لكنني لم اشجعه على مطمعيه هذين يومذاك وبعد ذلك بكل تبصر وروية .

والحقيقة هي انني كان لي امل كبير في مستقبله . حيث كان من

---

(١) وقد توفي في الحرب العالميـــة الثانية بعد ان تطوع جندياً في سلاح الطيران البريطاني وسقطت به الطائرة في سماء لندن .

(٢) كانت الكوت قد ربطت ببغداد في الحرب العالمية الاولى بسكة حديد لاغراض عسكرية.

الواضح انه كان أبرز شخصية في العراق ، في الذكاء وقوة الشخصية ، لكنه كان على جانب كبير من الطيش والغرور ولذا كان مرهوب الجانب عند الناس ومكروهاً من معظمهم . واذا كان في الامكان الاستفادة من مزاياه الحميدة واستخدامها استخداماً تاماً فاني كنت اتكهن له ان دوره سيكون ادارة مصائر العراق المستقل لعدة سنوات تاتي في ارجح المناصب التي تحتمها الظروف والاحوال – كمنصب رئيس وزارة مثلاً أو رئيس جمهورية . ومنذ ذلك الحين اخذت ادرّبه على الاضطلاع باحد هذين الدورين ، ويجب عليّ ان اعترف هنا انه كان تلميذاً ذا اهلية وقابلية بشرط ان تكون اليد التي تدربه فيها شيء قليل من الود والصداقة . وربما كنا قد نجحنا معه لو لا ان تقف في سبيل ذلك بعض الظروف الخاصة التي سوف أبيّن شيئاً اكثر منها في سياق هذه القصة .

تشكيل الحكومة الموقتة

وقد عزفت في محطة « جنوبي بغداد » الفرقة الموسيقية نشيد « انقذ الله الملك » عندما وقف القطار ووقف على منصة صالونه السر بيرسي ببزته البيضاء يؤدي التحية . ثم اعقب ذلك توارد المستقبلين [1] للتحية – الجنرال مارشال ، فالسر أيدغار بونهام كارتر وكثير غيرهما ، ولم تكن اقلهم شأناً غيرترود بيل ببدلتها الباريسية الجديدة وهي تبدي من ضروب المجاملة

---

(١) تقول المس بيل في رسالتها من بغداد المؤرخة في يوم الاحد ١٧ تشرين الاول ١٩٢٠ ان المستقبلين كان بينهم ٢٠ – ٣٠ من وجوه بغداد ، وكان من جملة هؤلاء الشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي القى بين يدي كوكس خطاباً ترحيبياً بعد الانتهاء من تقديم المستقبلين له . وقد رد السر بيرسي كوكس عليه بالعربية، فكان نص الكلمة التي القاها، بحسب ما نشرت في الجرائد ، كما يلي : « ان دولة بريطانية ارسلتني للمساعدة والاتفاق مع اشراف ورؤساء العراق لنحصل على الغاية المطلوبة للطرفين وتأليف الحكومة العربية حكومة مستقلة بنظارة انكلترة . ولقد جئت لهذه المقاصد لكن مازال الاغتشاش مستمراً طبعاً لا يمكن العمل ، وانا حاضر عندما تحصل الفرصة وهذا شيء بيدكم » .

والتلطف أعمقها . وكان نقيب بغداد المتقدم في السن السيد عبد الرحمن القادري ، بعمره الذي ينوف على السبعين وبهزاله برغم ضخامته ، على رأس جمهور الوجهاء الذين وقف السيد طالب مختالاً بينهم ليتقبل نصيبه من واجبات الطاعة . وكان كل شيء مؤثراً جداً ، فاتضح ان العهد الجديد يتأهب للبدء بداية حسنة برغم ان اعتراضات كثيرة اثارها بعد ذلك اناس [1] ذوو اهمية حول تعقيد السلطات المختصة في تقديمهم الى المندوب السامي بالفعل — حتى ان قسماً منهم لم يستطيعوا الدخول الى المحطة بالنظر لازدحام الناس في خارجها .

وبمثل هذا احتفلت بغداد بفجر عهد السلم الجديد وعهد الحرية والرخاء ، بينما كانت جمار الثورة لا تزال تتقد في الانحاء اتقاداً نكداً . حيث ان الثورة كانت قد كسرت شوكتها بدرجة لا يستهان بها ، غير ان عمليات التطهير تطاولت خلال اشهر متثاقلة بعد ذلك . فلم يلتفت الى اقتراحي باعلان الهدنة والامان . لان السلطات العسكرية و « شبان » ويلسن ، وعلى رأسهم ايفلين هاول آخر الرؤساء الرجعيين — الذين تحملوا بالطبع وزر اليوم وحرارته وتعرضوا لمهانات لا يمكن ان تنسى — كانوا يطالبون بحصتهم من الدم . وشعر كوكس انه يجب ان يذعن بهذا المقدار الى ضغطهم عليه .

وقد باشرنا من غير تأخير بواجب تأليف وزارة الحكومة الموقتة التي ستأخذ على عاتقها ادارة البلاد باشراف كوكس . وكان بونهام كارتر ، احد المعتمدين العدليين ، قد قطع شوطاً بعيداً في احضار لائحة لقانون

---

(١) وهاك ما تقوله المس بيل في رسالتها المشار اليها اخيراً في هذا الشأن : «... وماوصلت لكنتي حتى بدأ سيل الرسائل والزوار يتوافد علي ، وكل منهم منزعج اكثر من الآخر ، مبدين ان المدينة مستاءة كلها من تشريفات الاستقبال لان الوجهاء دعوا وحشروا الا قليلا منهم في الغبار خارج ردهة الاستقبال ، حتى انهم لم تتهيأ لهم الفرصة لمصافحة السر برسي . وقد قال لي شيخ هرم من الشيوخ البارزين وهو يحتدم غضباً « اننا جئنا بحب وطاعة ، وعندما حاولنا الاقتراب من فخامته دفعنا جانباً » . وقد عومل بهذه المعاملة حتى اخوة النقيب » .

الانتخاب مبنية على الطريقة التركية في الانتخابات الاوليـة والثانوية ، فكانت جاهزة في نهاية السنة لعرضها على مجلس الوزراء . وكان ، في الوقت نفسه ، واجب انتقاء الاعضاء اللائقين للوزارة ، وهو واجب غير سهل على الاطلاق ، قد اشغل السر بيرسي كوكس مشغولية تامة . حيث كان منهمكاً يوماً بعد يوم وعلى طول الايام بمواجهـة المرشحين الذين يمكن ان يقع اختياره عليهم واخذ المشورة والرأي من أناس يمثلون جميع مناحي الحياة ، الرسمية وغير الرسمية ، بينما كنت انا [1] وغيرترود بيـل نقوم بكثير من الاعمال التي تمهد له السبيل بزيارة المرشحين للوزارة وغيرهم ، ومن بينهم عبد القادر باشا الخضيري رجل بغداد الشيخ الذي لم تكن له مطامع سياسية مع انـه كان يعرف نبض البلاد كطبيب ذي خبرة . فأصبح صديقي الشخصي في المدينة ، فما كان اعظمه رجلاً . حيث انه كان الوحيد من بين مواطني بغداد الذي جازف في تحدي نقمة الاتراك بذهابه الى الرصيف في توديـع البريطانيين الذكور الذين اعتُقلوا وُسفّروا الى أفيون قره حصار في بداية الحرب . ثم استمر على النظر في راحة النساء الذين تركوا في المدينة . وقد بعث رجاله يوماً ، بعد ان استُنجد بـه ، لينقذ امرأة انكليزية من عبث أحد الضباط الالمـان . وكان يحيا حياة غريبة الاطوار عائشاً في قصره المطل على دجلة . حيث انـه كان ينزل سلم قصره صبيحة كل يوم ، في الشتاء والصيف ، فيستحم في النهر قبل

(١) وفي الرسالة نفسها تقول المس بيل ما يلي :

« .. وان فرائصي لترتعد عندما اتصور ما كان يمكن ان يحدث لو لم نبادر بمعالجـة الوضع عاجلا ، حيث لم يكن يوجد ولا شخص واحد من اصحاب السلطة يفكر بالناحية التي تختص بالعرب من الامر في الوقت الذي كان مَن المهم جداً ان يتصل السر بيرسي اتصالا شخصياً عاجلا بوجوه البلد . وقد تعشى المستر فيلبي معي تلك الليلة فجرى بيني وبينه حديث طويل مفيد . كما كان قـد تناول الشاي معي ايضاً فدبرت حضور ساسون افندي ليتعرف به فكان ذلك على جانب عظـيم من الفائدة ، حيث ان ساسون افندي من اعقل الناس هنا ، وقد استعرض معنا الوضـع بكامله بحكمته المعتادة وباعتداله المعهود » .

ان يقصد مكتبه في السوق حيث يشتغل طيلة النهار من غير ان يتناول شيئاً سوى شطيرة من الطعام وفنجانين من القهوة التركية حتى يحين المساء فيعود الى بيته ويبدأ بتقشيش اللوز والفستق ، وقدح العرق أمامه ، وهو جالس في شرفته المطلة على النهر وحيداً أو مع بعض الاصدقاء . ونادراً ما كان يهتم بطعام العشاء الفاخر الذي كان يُعد له على الدوام إلا عندما كان يقصده بعض الضيوف أو الزوار . وسواء وجد في مجلسه الزوار أو لم يوجدوا كان خدمه يحملونه كل ليلة الى فراشه وهو لا يعي من السكر . وكان يحمل بين جنبيه أنبل وأنقى نفسية في بغداد .

وكانت غيرترود بيل قد ركزت نفسها منذ مدة طويلة ، مع خادم أمين استخدمته عندها منذ ايامها الحالية في سورية ، في « فيلا »[1] صغيرة مبهجة تقع في وسط بستان بديعة ملأى بالزهور أصبحت تعرف بين المتحللين باسم « مرتع العزوبة » فأصبحت هذه الدار بسرعة مركزاً معترفاً به لشبكة واسعة النطاق من الدس السياسي الذي يشمل البلاد بأجمعها ، وما كان اكثر الساعات المبهجة التي قضيتها هناك معها هي وضيوفها من العرب متحسساً نبض الرأي العام وشاعراً بالحركات والميول في مجتمع من أشد المجتمعات تعلقاً بالسياسة في العالم . وكانت غيرترود بيل وانا بمقام مجستي السر بيرسي كوكس نسبر الجو الذي لا يمكن ان يجس وراء أمائر الزمن ودلائله . وكنا ثلاثتنا نشتغل بانسجام تام ووحدة متناهية كفرقة واحدة نذرت نفسها لواجب واحد — وهو ان نشكل في بغداد حكومة موقتة تحظى بقبول الجميع ومصادقتهم عليها .

على ان تلك المهمة لم تكن شيئاً يسيراً كما يتبادر الى السامع . فقد كان هناك شخصان فقط يليقان لاشغال المنصبين اللذين خُصصا لها في النتيجة .

---

(١) كانت الدار مبنية في قطعة بستان صغيرة تعود للمرحوم موسى الباجه جي، كما كان موقعها تجاه جامع السيد سليمان النقيب في السنك وفي جوار بناية مدرسة الرصافة المتوسطة الحالية .

فكان أحدهما ساسون افندي ، وهو تاجر يهودي بارز من تجار بغـــددا كانت لياقته واضحة للعيان لمنصب وزير المالية . وكان الآخر جعفر باشا ، الذي حارب ببسالة مع الفريقين خلال الحرب وحصل على وسام الصليب الحديدي ووسام سي . أيم . جي . كما كان احد قواد [1] فيصل البارزين . وكفرد من سكان بغداد كان قد عاد الى وطنه ، لم يكن في وسع أحـد ان يتحداه في طلبه منصب وزير الدفاع . وكان هناك قائـد آخر من قواد فيصل ، من أهالي بغداد ايضاً ، لم يكن قد وصل بغداد بعـــد لكنه كان من المتوقع ان يصل عاجلاً . وهو نوري باشا السعيد [2] الذي رشح مقدماً لمنصب رئاسة أركان الجيش العراقي – اي القائد العام فعلياً . وكان هناك رجل صالح تام الصلاح يليق لمنصب وزير العدلية وهو الرجل المتعلم الشيخ مصطفى الألوسي ، بينما كان هناك عدد كبير من المرشحين لوزارات المعارف والصحة العامة والاشغال العامة وما اشبه ممن يمكن ان ان يجري الانتقاء من بينهم من دون اي محذور سياسي لاننا كان في نيتنا ان نضيف الى مجلس الوزراء عدداً من الوزراء بلا وزارة لأجل ان نشرك في الحكم عدداً من الشخصيات المهمة الذين لا يمكن ان يوضعوا بشكل آخر .

إلا ان العقدة في تشكيل الوزارة كانت مركزة في رئاسة مجلس الوزراء

---

(١) كان قائد جيوش فيصل العام .

(٢) وهاك ما تقوله المس بيل في رسالتها المؤرخة في ٢٤ شباط ١٩٢١ حول نوري باشا : « ... لقد شهد الأسبوع الماضي وصول عنصر جديد لاول مرة ، حيث ان الضباط العراقيــين الذين كانوا في سورية اخذوا يعودون ، وأول من وصل منهم نوري السعيد صهر جعفر باشاالذي وصل في الاسبوع الماضي.. . وفي اليوم الذى تلى وصوله خابرني جعفر بالتلفون وسألني متى يستطيع نوري مواجهة السر بيرسي . فطلب اليهما السر بيرسي ان يأتيا في الحال ويبقيا لتناول الغداء معه. وقد جاءا في الثانية عشرة فجلسا معي ساعة واحدة . ثم استدعيت الكابتن كلايتن الذي كان يعرف نوري في سورية ويوده ، وكذلك مر بنا الميجر موري فجرى بين الجميع حديث خطير . وفي اللحظة التيرأيت نوري فيها أدركت انامامنا قوة قاهرة سهلة الانقياد وعلينا اما ان نستخدمها أو نشتبك معها في صراع شاق ... »

وفي وزارة الداخلية . حيث ان السيد طالب بالنسبة لمزاياه كان ابرز من يستطيع إشغال المنصبين ، لان الداخلية كانت الوزارة الحيوية وبالامكان دمجها بالرئاسة من غير محذور . ولو كنا اتخذنا هذه الخطوة لكان من الواضح ان يرشح السيد طالب مقدماً رئيساً مقبلاً للدولة مهما كان الاسم الذي كان سيُقرر لهذه الرئاسة – وربما كان سيكون رئيساً للجمهورية لان الشعور العـــام في العراق كان يومذاك ميال بصورة جازمة الى الجمهورية [1] وضد الملكية ، ما خلا عدد من الاتباع المهمين الذين كانوا يؤيدون الدعوة الشريفية .

غير ان غيرترود بيل تكره السيد طالب كما تكره السم ، بينما كان السر بيرسي كوكس لا يأتمنه ولا يميل اليه بوجه عام . على ان الاثنين اتفقا على ان يكون من بين الوزراء وان يشغل وزارة مهمة ، وبذا لم يكن من الصعب على المرء ان يرى ان المنصب الوحيد الذي يقبل به هو منصب وزير الداخلية . ولم ألح انا من جهتي على تعيينه للرئاسة ، لعلمي بانه كان ثمة رجل واحد فقط يقبل السيد طالب الاشتغال برئاسته ، ولعلمي أيضاً ان السيد عبد الرحمن النقيب بشيخوخته كان عزوفاً [2] عن الاضطلاع

---

(١) كانت هذه مجرد فكرة نشأت عند اناس معدودين فقط ، وان ما توصلنا اليه في الرجوع الى كثير من المصادر يشير الى ان اكثرية الطبقات كانت راغبة في الملوكية لأحد انجال الشريف . ويقول السيد عبد الرزاق الحسني في الص (٢٠٦) من كتاب (العراق في دوري الاحتلال والانتداب) ج١ ما يلي : « ... فان المستر فيلبي مستشار وزارة الداخلية سابقاً ... كان اول من قال وجاهر بفكرة الجمهورية في العراق ، وقد تمكن ان يجمع حوله بعض الشخصيات البارزة في العراق كالمرحوم توفيق بك الخالدي والشيخ سالم الخيون والسيد محمود النقيب وعبد المجيد الشاوي وفخر الدين جميل وغيرهم من رجال الحزب العراقي الحر الذي ألفه النقيب في بغداد ليسند وزارته والذين كان يؤثر عليهم المستر فيلبي . وقد اخذت هذه الفكرة كل الاخذ بحمل المستر فيلبي على اعتزال منصبه ... »

(٢) وقد جاء في رسالة المس بيل المشار اليها من قبل في هذا الشأن ما يلي : « ... واذا رفض النقيب ان يخطو الى الأمام ويسد الثغرة الحاصلة فان وجه الخيار الوحيد الذي أراه هو ان

بمثل هـــذه المسؤولية . وقد كنت على اتصال دائم بالسيد طالب مشيراً عليه بالصبر وموصياً إياه بالاذعان لخطط كوكس من أجل ان يتم تشكيل الحكومة الموقتة التي سيكون هو فيها ، على كل حال ، الشخصية المهيمنة كوزير للداخلية . وفي الاخير تم كل شيء ، فعقدنا كوكس وغيرترود وأنا مجلساً نهائياً لنقرر وضع كل شيء في موضع التنفيذ . فذهب كوكس وحده لزيارة النقيب قاصداً تكليفه بتشكيل الحكومة الموقتة ، وبقيت انا وغيرترود في مكتبه منتظرين نتيجة المواجهة . وعندما عاد كوكس الينا خاطبنا بكلمات مختصرة مفيدة تنم عن ارتياحه قائلاً : « لقد قَبِل » ، فطفح البشر من أوجهنا كلنا لهذه النتيجة السارة التي تكاملت بها مساعينا [١] .

ولما كنت ، في الوقت نفسه ، على اتصال وثيق بكوكس كنت قد وضعت مسودة خطة للجهاز الاستشاري المزمـــع تنفيذه تتناول الادارة الحكومية بكاملها من الوزارات الى المناطق والنواحي . وكان ويلسن قد جنّد لهـــذا الجهاز ، فضلاً عن الموظفين الكبار في المركز ، ما لا يقل عن (١٣٠) ضابطاً ادارياً بريطانياً يجب ان يتخلوا الآن عن مناصبهم الى المتصرفين والقائمقامين ومديري النواحي العرب . وسوف لا تدعو الحاجة الا الى عـــدد قليل من هؤلاء الموظفين البريطانيين ليصبحوا مستشارين

يضطلع السر بيرسي نفسه بالمهمة (تأليف الوزارة الموقتة) فيدعو اعضاء الوزارة الموقتة ويعينهم. والمعتدلون انفسهم هم الذين يفكرون بهـــذه الفكرة الآن ، حيث ان فخري جميل اقترح ذلك علي صبيحة هذا اليوم . ولست بحاجة ان أقول باني رحبت بها مبدية غاية التعجب والاهتمام لاني أريد ان يأتي كل شيء من عندهم لا من عندنا ... »

(١) لقد تشكلت الحكومة الموقتة برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب وعضوية الذوات التاليـــة اسماؤهم (مع حفظ الالقاب) : السيد طالب النقيب للداخلية وساسون حسقيل للماليـــة والسيد مصطفى الالوسي للعدليـــة وجعفر العسكري للدفاع وعزت الكركوكي للاشغال وعبد اللطيف المنديل للتجارة والسيد محمد مهدي الطباطبائي للصحـــة والمعارف ومحمد علي فاضل للاوقاف . اما وزراء الدولة (بلا وزارة) فقد كانوا : عبد الرحمن الحيدري وعبد الجبار الخياط وفخر الدين جميل والحاج عبد الغني كبة والشيخ عجيل السمرمد وعبد المجيـد الشاوي والشيخ محمد الصيهود وداود اليوسفاني والشيخ سالم الخيون واحمد الصانع والشيخ ضاري السعدون والحاج نجم البدراوي.

ومساعدي مستشارين للموظفين الوطنيين ، وعلى هـذا فقد انقصت عددهم من (١٣٠) الى (٣٠) فقط ، وبعـد استشارات ومداولات أخرى رُفع العدد الى (٤٠) . اما البقية فقد تحتم عليهم ان يتركوا البلاد ، وقد دبرنا لهم طريقة سخية بدفع الاكراميات النهائية اليهم لاجل ان يتسنى لهم تدبير شؤونهم حتى يمكن ايجاد وظائف أخرى لهم . وأذكر بهذه المناسبة انني أصررت على وجوب إعادة ديكسن الى العراق ، وعلى إخراج الكابتن سي . كي . ديلي أحد رجال ويلسن الجفاة من الخدمـــة في البلاد .

ووجب أخيراً ان نباشر بإملاء المستشاريات الوزارية ، فعقد كوكس عدة اجتماعات لهذا الغرض . فكان بونهام كارتر ، وهو أقدم موظف كبير في معية المندوب السامي على الاطلاق ، لائقاً بوضوح لمستشارية العدلية ، ويضاهيه في ذلك لياقةً لمستشارية المالية أ . هـ . سليتر . وقد كان سليتر شديد الحيوية وادارياً مقتدراً وطموحاً جـــداً . وفوق ذلك كله كان يرغب بالاحتفاظ بمستشارية الداخلية لنفسه ، ولذا اقترح بجرأة ان أكون انا مستشاراً للاشغال العامة . فقابلت الاقتراح بصخب غير لائق ، فخُصصت تلك المستشارية الى الجنرال سنت جون أتكنسن الذي كان مديراً عامـــاً للاشغال العامة في عهد ويلسن وكان أليق رجل للمنصب الجديد هذا . ثم أصبح لايونيل سميث مستشاراً للمعارف ، كما خصصت المستشاريات المختلفة الأخرى من غير صعوبة تذكر حتى بقيت مستشارية الداخلية وحدهـــا شاغرة ووجب ان يشغلها أحد مرشحَين هما انا وغاربيت الذي جاء الى العراق ليكون السكرتير الاول للمندوب السامي . وكان المقرر ان يكون هذا المنصب مساوياً لمنصب المستشارية الوزارية ، وعلى هذا كان لدينا في الحقيقـــة منصبان ومرشحان لهما . وكان سليتر لا يرغب ان اكون في الداخلية مهما كلف الامر فرشح غاربيت لها .

فالتفت اليّ كوكس قائلاً : « أي منصب ترجح انت ؟ » فأجبته :

« انني في خدمتك بالكلية يا سيدي » . وعندئذ اجابني بقوله : « أشكرك يا فيلبي ، اني اقدر ذلك » . وعلى هذا أصبحت مستشاراً للداخليـة كما أصبح السيد طالب وزيري .

ثم حاول سليتر ان يلعب لعبة أخرى فاقترح ان يتقاضى هو وبونهام كارتر راتباً شهرياً قدره (٣٠٠٠) روبية بينما يجب ان يتقاضى جميـع المستشارين الآخرين (٢٥٠٠) روبية . فاعترضت على ذلك لانني مـع عدم وجود مصلحة خاصة لي بالمبلغ الذي تقرر اعطاؤه كنت اعتقد نه من الضروري ان يتقاضى جميع المستشارين نفس الراتب فنجح اعتراضي - حيث تقرر ان يكون الراتب الشهري للجميع أقل المبلغين المذكورين .

اعلان الحكومة المؤقتـــة

وبذا أصبح كل شيء جاهزاً لاصدار البيان الذي يعلن عن إدخال الترتيبات الجديدة التي وضعتُ مسودتها آنا ووقعها كوكس . وقد حضر هو جلسة مجلس الوزراء التدشينية التي حضر فيها جميع الوزراء والمستشارين يترأسهم سماحة النقيب . وعلى هذا انصرفت الحكومة الموقتة الى عملها الذي كان يتمركز ، بالاضافة الى بحث مشاكل الادارة اليومية ، لدرجة كبيرة في البحث في لائحـــة قانون الانتخاب . فكان ثمة كثير من المناقشات وتضارب الآراء حول هـذا الموضوع وغيره ، لكن الامور سارت سيراً سَمحاً بوجه عام . ولم يجـــد السيد طالب ، وهو الوزير المهيمن ، اية صعوبة في أخذ أحسن شقق السراي لوزارته ، وكان ذلك يعني انني ايضاً حصلت على غرفة واسعة مريحة في جوار غرفتـه وتتصل بها بباب مؤصل خاص ، بينما خصصت له غرفة واسعة أخرى بالاضافة الى غرفة مكتبه كان يستضيف فيها جميع الاشخاص المهمين الذين كانوا يقصدون زيارتـــه في ساعات النهار المناسبة على غدائه الكثير الفاخر الذي كان يرسل اليه يومياً من مطبخ بيته .

وقد جاءني جعفر باشا يوماً يشكو ، والدموع في عيونه لانه كان رجلًا حساساً شديد العصبية ، من حشره هو ومستشاره الكولونيل أيدي في غرفة تشابه الاصطبل ليس فيها الأثاث الذي يليق بالمكتب . ألم يكن هو وزيراً للدفاع مع لا شيء يدافع به ولا شيء يدافع عنه لان القوة العسكرية الوحيدة التي لها وزن في البلاد كانت قوة الشبانة العربية ذات الضباط البريطانيين برئاسة الكولونيل بويل ، التي كانت يومذاك تحت اشراف المندوب السامي المباشر بانتظار انتقالها الى عهدة وزارة الداخلية التي كانت تتبع اليها بطبيعة الحال قوة الشرطة بقيادة الكولونيل بريسكوت ؟ مسكين جعفر ! انه كان يسلك احياناً سلوك الطفل الفاسد ، لان الذنب لم يكن ذنبنا في عدم تشكيل جيشه حتى ذلك الحين . حيث ان مستقبل الشبانة – وكان نصفها عربياً ونصفها كردياً – كانت مشكلة تثير كثيراً من التضارب في الرأي ، وكذلك كانت المناطق الكردية الواقعة في شمال العراق التي كان يديرها على حدة ضباط بريطانيون مربوطون بالمندوب السامي بانتظار النظر في وضعها المقبل وعلاقته بحكومة العراق التي سوف تظهر للوجود بعد ان يلتئم المجلس التأسيسي ويقرر شكلها النهائي .

ولا يسعنا هنا البحث بالتفصيل في أتعاب الادارة التي أخذت تتزايد . ويكفي ان نقول ان قانون الانتخاب بشكله النهائي قد حظي بعد مدة طويلة بمصادقة حكومة النقيب ثم رُفع الى المندوب السامي لنشره بعد المصادقة عليه . على انه في الحقيقة لم يُنشر ، وقد حالت دون نشره تعقدات غير متوقعة . فبينما كنا نجاهد بكل قوانا من اجل وضع سياسة حكومة صاحب الجلالة ، التي تقرر العمل بها في شهر آب ، في موضع التنفيذ كانت قوى اخرى تعمل عملها في « الوايت هول » البعيدة عنا لتشوه تلك السياسة تشويها غريباً . حيث ان المستر ونستن تشرشل أصبح وزيراً المستعمرات ، وقد اخذ على عاتقه إعادة النظر في جميع وعود

الحكومة وتورطها في شؤون الشرق الاوسط لحل مشاكلها من جديد . وكان قد دعا لورنس ليكون « صديقه الامين » ، وكان لورنس عازماً على ان يضرب ضربة باطشة اخيرة من اجل صديقه فيصل الذي كان منزوياً في ايطالية يومذاك ، سواء كانت هناك وعود او لم تكن .

مؤتمر القاهرة

وقد أخبرني كوكس في أحد الأيام ان تشرشل افترح عقـــد مؤتمر كبير شامل في القاهرة للبحث في جميع مشاكل الشرق الاوسط واستصدار القرارات اللازمة بشأنهـــا . على انه طمنني ان ذلك سوف لا يستدعي احداث تبدل جوهري في خططنا المختصة بالعراق ، لكن قانون الانتخاب يجب ان يؤجل أمره الى حين عودته . على ان تشكيل الوفد [1] من الشخصيات التي اخذها معه كان شيئاً ينذر بالشؤم – غير ترودبيل وغاربيت وجعفر باشا . فكان كل أحد يشعر ان شيئاً خطيراً كان على وشك ان يحدث ، ففوجىء كل من بونهام كارتر ، وكيل كوكس ، وانا بسيل من الاستفسارات الملهفة التي كان كلانا يجيب عليها بصدق وامانة ، ان الحكومة البريطانية كانت قد وعدت وعداً قاطعاً بان اهالي العراق يجب ان يقرروا مصيرهم بحرية واننا لا نعلم شيئاً عن اية نية في تحوير ذلك الوعد . وكان السيد طالب مهتاجاً من القلق ، وحتى النقيب الشيخ كان متكدراً بخطورة . وبعد ذلك وردت من جعفر باشا كتب خالية من التبصر الى مشايعيه في بغـداد تفيد بان كل شيء كان يسير على ما يرام بالنسبة لما يبتغونه ، فانتشرت الاخبار في المدينة كما تنتشر النار الهائجة .

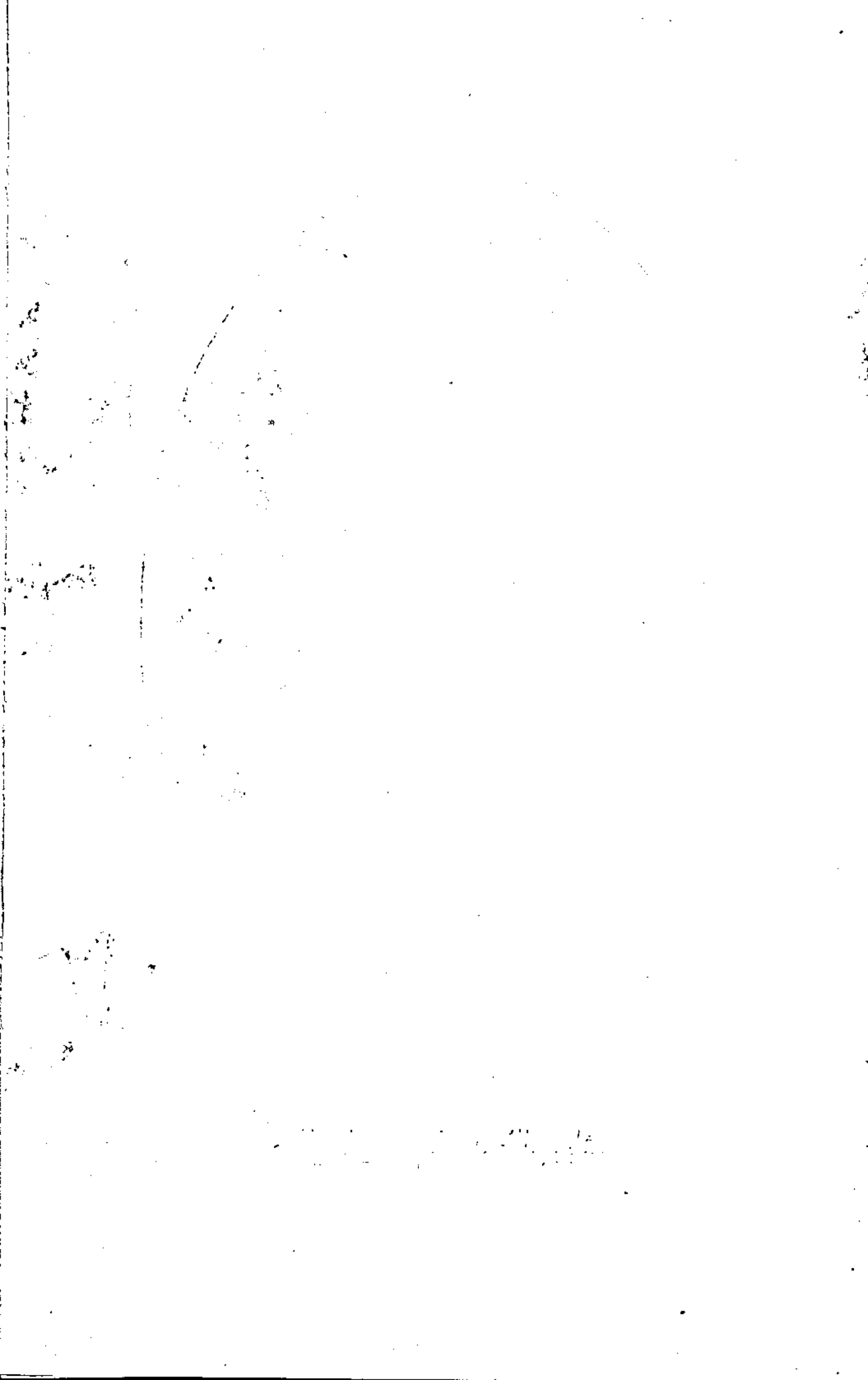
---

(١) كان الذين حضروا مؤتمر القاهرة عن العراق ، على حد قول المس بيل الذوات التالية اسماؤهم :

السر بيرسي كوكس ، جعفر باشا العسكري ، ساسون افندي ، المس غيرترودبيل ، السر أيلمر هولدين القائـــد العام في العراق ، أمير اللواء الركن أي . اتكنسن مستشار وزارة الاشغال ، والعقيد س . سليتر مستشار المالية .



معالي المرحوم السيد طالب باشا



وعندئـذٍ أخذ كل من النقيب والسيد طالب يساوره الريب بانني كنت اعرف اموراً اكثر مما كنت أبوح بها ، وانني مع بونهام كارتر كنا ندبر شيئاً من قبيل المؤامرة . وفي معمعان هذه الظروف كتبت مذكرة طويلة الى بونهام كارتر لخصت فيهـا الشائعات التي طرقت سمعي وذكرت فيهـا بصورة قاطعة انني اجد نفسي مجبراً على الاستقالة احتجاجاً اذا كانت الوعود ، التي جُعلتُ واسطة في الدرجة الاولى في اعطائها وتفسيرها الى جميع من يهمه الأمر بمقتضى منزلتي الرسمية ، سوف يعبث بها في القاهرة بأي مقدار يُعتد به . فعبر لي عن رأيه بان موقفي كان معقولاً جداً وله ما يبرره بالنسبة للظروف الراهنة مع انه لم يعرف شيئاً عن مدى تقدم المداولات في القاهرة اكثر مما كنت اعرفـــه انا ، وانه سوف يعرض مذكرتي على كوكس عند عودته . ولأجل ان أجس الامور مقدماً واجهت كوكس عند أول رجوعه . وكان قد قرأ مذكرتي فأكد لي ان الحكومة البريطانية لا تنوي النكول عن وعودها لأهالي العراق . اما غيرترود بيل وجعفر باشا فقد كانا أقل تبصراً في حديثهما عن المؤتمر ، لكنني بالنظر لتطمينات كوكس الي شعرت بارتياح وكان في وسعي ان أهدىء أشد مخاوف السيد طالب والنقيب . غير ان الشائعات استمرت على اكتساحها للمدينة فكان الوضع يزداد حراجة .

نهاية السيد طالب السياسية

وفي أحد ايام أواخر مارت أخبرني السيد طالب انه سيقيم وليمـــة عشاء في بيته لجميع القناصل والممثلين الديبلوماسيين في بغداد ، ولأبرز رجال التجارة والاعمال من الجالية الاوربية الموجودة في بغداد وعدد من الوجهاء المحليين . وكانت النية ان يُدعى الى الوليمة ايضاً مراسل جريدة « الديلي تلغراف » المستر أيس. لاندن ، وقـد طلب اليّ السيد طالب ان ألبي دعوته ايضاً . فاقترحت عليه انني من الأوفق ان لا أحضر الوليمة

لان الحديث فيها سيكون ذا صبغة سياسية وان حضوري وانا الموظف البريطاني الوحيد سوف يقيد حريته ، ولم اذهب بالفعل . فكان الحديث سياسياً في الحقيقة ، وقد سالت الخمرة خلاله كما يسيل الماء وفي ضمنها افخر انواع الشمبانيا . كما كان صاحب الدعوة مرحاً مثل أي مدعو آخر ، وربما اكثر مرحاً من غيره ، وفي نهاية الدعوة نهض ليخفف عن قلبه شيئاً من العبء السياسي الذي كان اكثر مما يتمكن تحمله . وكان فحوى حديثه ان شائعات تعيين فيصل ملكاً في العراق اخذت تملأ الاندية والمحافل وهو يود ان يوضح للحاضرين وللحكومة البريطانية ان أهالي العراق لا يريدون فيصلاً ولا يتساهلون بفرضه عليهم . « واذا كنتم تشككون في حديثي فبيننا على هذه المائدة هنا الشيخ محمد أمير وبيعة عنده اربعون الفاً من اشداء الرجال والشيخ فلان وفلان على رأس قبيلة تعد ثلاثين الف رجل ، اسألوهم ليجيبونكم عما يفكر فيه الناس في هذا الشأن . وان الحكومة البريطانية كانت قد وعدت باننا سننتخب شكل الحكومة الذي نريده بحرية ، وانني أحتج ضد أي تغيير يطرأ على ذلك الوعد » . فعجّل أحد ضيوف السيد طالب ، وكان تاجراً اسمه تود ، بالذهاب الى « مرتع العزوبة » ليقص على غيرترود بيل جميع ما جرى في الوليمة ، فنقلت غيرترود بيل ذلك الى كوكس في اليوم التالي .

وكان السيد طالب قد صادف قبل أيام الليدي بيل في احدى الحفلات فعاتبته على تقصيره في عدم زيارتها احياناً . وعلى هذا وافق على تناول الشاي معها في يوم السبت التالي ، اي السبت الذي كان يلي وليمة العشاء التي أقامها هو . وفي حوالي الظهر من ذلك اليوم أطل عليّ في غرفتي قائلاً انه قد انجز أشغال اليوم وسأل فيما اذا كانت هناك بعض الشؤون التي يمكن البحث بها مع كوكس لانه يأمل ان يلتقي به وقت تناول الشاي بعد ظهر ذلك اليوم نفسه . فقلت له انه ليست هناك قضايا خاصة تحتاج الى البحث ، فخرج من الدائرة .

وقد تصادف ان زوجتي وانا كنا مدعوين من قبل ضابط من الضباط يدعى الكابتن كوكس للرقص وتناول العشاء في نادي العلوية تلك الليلة . وعندما وصلنا النادي استقبلنا ضابط آخر واخذ يشرح لنا انه ينوب مناب صاحب الدعوة في القيام بواجب الضيافة لان الكابتن كوكس استُدعي فجأة للقيام بمهمة مستعجلة . وعندما قمنا لتناول العشاء همس في أذني قائلا : « شيء مزعج ، أليس كذلك ؟ » فاضطررت للاكتفاء بذلك موقتاً ؛ وفي خلال رقصة لم تتيسر لي زميلة أراقصها فيما ذهبت اليه على « البار » ، وبعد ان طلبت مشروباً لكلينا قلت له : « انا آسف لما حل بالكابتن كوكس ، قل لي كيف وقع ما وقع ؟ » وقد كان يتصور بطبيعة الحال انني كنت على علم بكل شيء ، فروى لي القصة بكاملها .

حيث ان السيد طالب خُطف بامر من السر بيرسي كوكس عندما كان ضيفاً في بيته ، ثم نقل بسيارة مسلحة الى زورق بخاري كان راسياً في جنوب بغداد ليأخذه الى البصرة ثم الى المعتقل في جزيرة سيلان . وهنا يجب ان أدون تفصيل وقوع الحادث .

انني مقتنع ان الليدي كوكس كانت الفريق البريء تماماً في المؤامرة التي حيكت بمهارة حتى بقطع جميع اسلاك التلفون المهمة وفي ضمنها خط التلفون العائد لي . كان كوكس نفسه قد ذهب الى ساحة « السباق » تاركاً رسالة اعتذار عند الليدي كوكس التي كانت معها غيرترود بيل عندما أعلن وصول السيد طالب . وبينما كانت أقداح الشاي تقدم حضر بصورة عرضية كل من الميجر أي . دبليو . بوفيل والكابتن كوكس واشتركا في تناول الشاي ثم تركا المجلس . وبعد عشر دقائق نهض السيد طالب للخروج فشيعته غيرترود بيل الى باب « المقيمية » الخارجي ، وبعد ان صعد الى سيارته عادت راجعة . وما ان شغّل السائق سيارته حتى وجد الطريق مسدودة بعددٍ من سيارات الحمل . وعندما همّ السيد طالب بالاعتراض على سوء الادب هذا ظهر بوفيل والكابتن كوكس من خلف

احدى سيارات الحمل معتذرَين عن انسداد الطريق ، ثم طلبا اليه ان يعتبر نفسه سجيناً عندهما . حيث كانت لديهما تعليمات بتوقيفه ونقله من بعد ذلك الى جهة مجهولة . وبذا دخل أصلب رجل في بلاد العرب في فخ من ابسط الانواع لم يكن له مجال يمكن للتملص منه . وعلى هذا ذهب بهدوء .

فاغتاظت زوجتي وغلا في مرجل الغضب . وفي أبكر ساعات اليوم التالي ، بعد ان أصلح خط تلفوني ، اتصلت بكوكس فرجوت منه اذا كان في وسعي ان أقابله للمداولة معه بما كان قد حدث في اليوم السالف . فاجابني بقوله : « بالتأكيد ، يمكنك المجيء في اي وقت ترغب فيه حيث اني غير مشغول الآن » . وعلى هذا ذهبت وانا مزمع على تقديم استقالتي في الحال ، ثم عدت ، بعد ثلاث ساعات من المناقشة ، وانا عضو من اعضاء الوزارة [1] العراقية ، أي وزيراً للداخلية وكالة عن السيد طالب ! وكان كوكس صريحاً تمام الصراحة معي حول نفي [2] السيد طالب ،

(١) كان في وسع المستشار يومذاك ان يتوكل عن الوزير .

(٢) وبعد ان نفي السيد طالب اذاع السير بيرسي كوكس بلاغاً هذا نصه :

بلاغ من ديوان المندوب السامي

يرى فخامة المندوب السامي من المناسب ان يوقف الرأى العام على الاسباب التي اقتضت باقالة السيد طالب باشا من الحكومة واخراجه من بغداد .

ان فخامة المندوب السامي قبل مغادرته بغداد صرح مراراً علانية وفي اثناء محادثاته مع المأمورين والاشراف بان رغبته ورغبة جلالة الملك ترمي الى ضمان الحريـة التامة الى العراقيين ليعربوا عن رغباتهم بشأن نوع الحكومة التي يطلبونها والشخص الذى يريدون ان يتولى عليهم . وعند رجوع فخامته من القاهرة أكد تصريحاته هـذه لعظمة رئيس مجلس الوزراء وللسيد طالب باشا لما فاتحاه بشأن المسألة نفسها. ولكن في صباح اليوم السادس عشر من اليوم الحالي بلغ مسامع فخامة المندوب السامي امر خطاب وجهه السيد طالب الى فريق من الوجهاء في اثناء مأدبة اقامهـا في اليوم الرابع عشر من الشهر الحالي ، اكراما لوجيه بربطاني اثناء زيارته بغداد زيارة قصيرة ، وبعـد ان ألح السيد طالب على ضيفه مستفحماً منه ما اذا كان بامكانه تأكيد تصريحات فخامة المندوب السامي الى موقف الحكومة البريطانية في هذا الشأن، وبعد ان استفهم عن خير الطرق التي يضمن بها اقالة بعض الموظفين البريطانيين من حاشية المندوب السامي لم يستحسن خطتهم اطرد في الكلام بقوله انه

وقد تحققت انه ، بالنسبة للظروف ، لم يكن واثقاً مني قبل وقوع الحادث لانني لو علمت بما كان مبيتاً لانذرت صديقي بعدم تلبيته دعوة الشاي على وجه التأكيد . ولا أعلم ما كان في وسع السيد طالب ان يفعل لمقابلة المؤامرة التي كانت تحاك ضده . وكان كل ما وقع من اختصاص كوكس وهو مسؤول عنه . وقد أعربتُ عن عدم تأييدي لما فعله ، كما فسرت ذلك بان الوضع كان يستدعي إزاحة السيد طالب عن الطريق ليكون ممهداً لمجيء فيصل . ثم ذكرته بذكرتي قائـــلا انني ما زلت مصراً على ما جاء فيها . لكنه أكد لي بانه لم تكن ثمة نية في فرض فيصل ملكاً على الناس . ولم يسعني غير ان اتقبل التطمين قبولاً حسناً ، ثم انصرفنا نحو البحث في شؤون المستقبل – وخاصة انتقاء من يخلف الوزير المُبعد . فقال لي : « انني لا اعتقـد بوجوب الاهتمام بهذا الموضوع الآن ، حيث يصعب علينا ان نجد رجلا جديداً للداخلية في الوقت الذي امامنا جميـع شؤون الانتخاب هذه . وانت تعرف شؤونها ومن الأرجح ان تتابـــع العمل كوزير ، وسوف أشرح ذلك للنقيب » .

هو وابناء بلاده قـد عزموا على حمل ذوي الشأن على تنفيذ خطة حكومة جلالة الملك بامانة حسب التصريحات المذكورة آنفاً . ثم التفت الى امير ربيعة والشيخ سالم آل خيون اللذين كانا في عداد ضيوفه وقال لمن يقترح اقتراحاً انه اذا بدرت اي بادرة عكس ذلك فيجب ان يحسب حساباً لأمير ربيعة والعشرين الفاً من رجاله المسلحين وللشيخ سالم ال خيون والقبائل التابعة له . وقـد تمادى في تهوره حتى قرن اسم عظمة النقيب في هذا التهديد .

ان فخامة المندوب السامي لا يخامره ابداً اقل شك في الموقف الحبي الذي للزعيمين المشار اليهما او في استقامة مقاصد عظمة النقيب استقامة تامة . ولكن فخامته يرى انه والحالة هـــذه اذا بدا أقل تسامح في أمر التفوه بكلام ينم عن تهديد شائن باشهار السلاح في وجـه حكومة جلالة الملك ويصدر عن رجل كالسيد طالب باشا الذي يشغل منصباً خطيراً فيكون مقصراً في القيام بواجبه نحو سكان هذه البلاد والحكومة البريطانية .

فبناء على ما تقدم وحباً بمصلحة القانون والنظام والحكومة الصالحة رأى فخامته من واجبه ان يطلب من القائد العام ان يتخذ التدابير اللازمة لابعاد السيد طالب حالا . وقد غادر بغداد مساء اليوم السادس عشر من الشهر الحالي (نيسان ١٩٢١) .

وعلى هذا تربعت على دست الحكم في مكان السيد طالب وسار كل كل شيء سيراً حسناً . ولم يكن هناك ما يدل على وقوع تطورات غير مرغوب فيها عدا ازدهاء الحزب الشريفي المتعاظم الذي كان يبين مبنياً على سوء فهم وتقدير . واخذت الشقة في هذا الدور تزداد توسعاً بيني وبين غيرترود بيل مع اني كنت كثير المشغولية بحيث لم يساورني القلق من أجل ذلك ، في الوقت الذي كنت أدرك انها كانت في معسكر العدو بصورة جازمة . وفي أحد الايام ، بعد انتهاء جلسة طويلة من جلسات مجلس الوزراء ، طلب اليّ النقيب الشيخ ان اتأخر لانه كان يريد التحدث اليّ شخصياً . وعندئذ بادرني قائلا : « هل تعرف شيئاً عن هذا ؟ » ووضع في يدي برقية ، بعد ان ترك الجميع الغرفة . وكانت البرقية قد وردت من جدة بتوقيع جعفر ابي التمن ، احد وجهاء بغداد المبعدين بناءً على اشتراكه في الثورة . وكان نص البرقية ان : « سمو الشريف فيصل ابحر اليوم الى البصرة ، أعدوا الاستقبال اللائق » .

فأجبت قائلا : « كلا ، لا أعرف شيئاً . ولكن هل في وسعي ان احتفظ بالبرقية ؟ سوف أذهب لمواجهة كوكس في الحال ، ثم اعود لأخبركم بما يقول » . ثم ذهبت فوراً الى « المقيمية » حيث وجدت كوكس غير مشغول . وبادرته قائلا : « ان الاسواق ملأى بالشائعات بان فيصلاً قد أبحر من جدة متجهاً الى البصرة ، فهل ذلك صحيح ؟ » إلا انه اجابني : « أؤكد لك يا فيلبي ، لا اعرف شيئاً عن ذلك . حيث انني لم تصلني مثل هذه الأخبار » . وعند ذاك أبرزت البرقية قائلا : « اذن ، قد يهمك ان تقرأ هذه » . فكرر تأكيداته السابقة بانه لا يعرف شيئاً عنها ، ثم خرجت لموافاة النقيب بالنتيجة .

وبينما كانت الاحوال تتطور بصورة لا يمكن تحملها بالنظر للشائعات المتناقضة أعلن رويتر ان المستر تشرشل سوف يدلي بتصريح هام يختص بسياسة

الحكومة في الشرق الأوسط بتاريخ ١٢ حزيران . وكانت زوجتي وانا قد اتخذنا الترتيبات اللازمة لاقامة حفلة عشاء ورقص فخمة في نادي العلوية يوم ١٣ حزيران ندعو اليها حوالي المائتي ضيف ،من بينهم كوكس وعقيلته وغيرترود بيل وغيرهم من عسكريين ومدنيين . وقد كنا مزمعين ان تكون الحفلة ذات قيمة كبيرة ، وبذا كانت زوجتي واصدقاؤها قبل موعدها بيوم او يومين منهمكين في تزيين قاعة الرقص . فصدرت « الاوقات البغدادية » في صباح يوم الحفلة وفيها النص الكامل لخطاب [1] تشرشل ، فعجلت باخفائها لئلا ترى زوجتي الخطاب . ثم لحقت بزوجتي في النادي لالقاء نظرة اخيرة على الترتيبات وغيرها من الترتيبات ، وفي الساعة المعينة وقفنا في الباب لاستقبال الضيوف . وقد رقصت أول رقصة مع الليدي كوكس التي كانت منشرحة كالطفل ، كما رقصت الرقصة الثانية مع غيرترود بيل التي أعربت لها بصراحة تامة رأيي في خطاب تشرشل وفي مؤتمر القاهرة وكل شيء آخر . ورقصت وشربت

(١) نشرت جريدة العراق في عددها ٣٢١ الصادر في ١٨ حزيران ١٩٢١ ترجمة نص الخطاب المذكور ، وهاك ما جاء فيه عن العراق :

. . . ولعلكم تذكرون انه نشر في العراق في حزيران ١٩٢٠ بلاغ جاء فيه ان السر بيرسي كوكس عائد في الخريف وقد عهد اليه أمر انشاء حكومة عربية محضة . وقد انجز الشيء الكثير من ذلك ، فأنشأ حكومة احتياطية (موقتة) يرأسها سماحة النقيب . واننا لنعترف بما قام به سماحته من الخدمات الجليلة والاخلاص في المعاونة ، وفي النية الاستعاضة عن الحكومة الموقتة هذه بادارة اساسها جمعية عمومية منتخبة وذلك في البضعة الاشهر المقبلة واجلاس حاكم عربي تقبله البلاد وانشاء جيش عربي لأجل الدفاع الوطني . وليس في النية إكراه الشعب على قبول حاكم مخصوص . وستطلق الحرية التامة في البحث والافصاح عن الرأي سواء كان ذلك في امر انتخاب الحاكم أو انتخاب الجمعية العمومية . ولما كانت الدولة المنتدبة قد تكبدت نفقات باهظة فلا يمكنها والحالة هذه ان تتغاضى عن مسألة حيوية هذا شأنها . فطبيعة الحال تقضي بأن تكون رغبتنا انتخاب افضل المرشحين ، ونحن واثقون ان العراقيين يتخذون الحكمة رائداً لهم في انتخاب هم أحرار فيه وذلك بارشاد السر بيرسي كوكس الذي نثق به كل الثقة ...

وقد بلغت الحكومة البريطانية الأمير فيصلا انها لا تعارض في ترشيحه ، وانه اذا تم انتخابه فالحكومة البريطانية تؤيده . وهو الآن في طريقه الى البصرة ، ولا شك في ان فيصلا لو انتخب نكون قد توصلنا الى حل فيه مستقبل سعيد ناجح .

تلك الليلة بكل حرية لأغرق احزاني واتراحي ، وما حل وقت العشاء حتى كنت على شيء من التمايل ، ولا اتذكر ما بقي من الحوادث حتى انني لا اتذكر بكل تأكيد انني رقصت الرقصة الاخيرة مع غيرترود وناقشتها مناقشة حادة كما اتهمتني زوجتي في صباح اليوم التالي . ولم أبح لها بما كان يساورني الا في ذلك الصباح ، وعندئذٍ فهمت كل شيء . حيث ان تشرشل كان قد صرح في البرلمان ان فيصلاً كان في طريقه الى العراق ليرشح نفسه الى العرش ، وان الحكومة تتمنى له كل توفيق وتأمل ان العراق سوف يقدر هذه الفرصة التي تسنح له في تحقيق أمانيه . وقد علمنا كلنا ماذا كان يقصد بذلك . حيث ان « قطة القاهرة أطلق سراحها من الكيس » اخيراً . لكن الغريب ان السياسة المعلن عنها في حرية انتخاب رئيس للدولة كانت ما تزال معترفاً بها ، وان الوضع والحالة هذه لم يكن في صالح فيصل [1] وأقليته الضئيلة من المؤيدين في البلاد . لكن

---

(١) انني اعتقد ان المستر فيلبي غير مصيب في حكمه التعسفي هذا . حيث ان قرائن الأحوال تدل على ان البلاد ، بعد ان عرفت بالثورة العربية في الحجاز وبالبلاء الحسن الذي أبلاه الملك حسين وانجاله وأخصهم فيصل ، كانت متهيئة لقبوله ملكاً عليها . كما لم يكن هناك ميل الى الجمهورية الا في مخيلة فيلبي نفسه وبعض اتباع السيد طالب باشا وغيره . ولعل المستر فيلبي في قوله هذا كان ينظر الى الأمور بمنظار ميله الى السيد طالب باشا وعبد الرحمن النقيب وكرهه للشريف وانجاله . ودليلنا على ذلك ما يلي من المستندات المتوفرة لدينا :

١ ــ برقية ويلسن وكيل الحاكم الملكي العام في العراق الى وزارة الهند المرقمة (١٠٢٥٠) والمؤرخة ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٨ . وويلسن كما لا يخفى هو قطب الاستعمار البريطاني الكبير الذى كان يناوىء استقلال العراق وتأسيس الحكم الوطني فيه .

٢ ــ نتائج الاستفتاء العام الذي اجراه ويلسن في العراق في ١٩١٨ ــ ١٩١٩ . حيث دل الاستفتاء ان البلاد ترتضي بالملوكية لأحد انجال الشريف .

٣ ــ البرقية التي ابرقها ويلسن بعد انهيار الحكومة العربية في سوريا ، وترجمتها كما يلي: «هل في وسع حكومة صاحب الجلالة ان تنظر في امكان تقديم إمارة بين النهرين اليه ؟ فقد كانت من اعتراضاتنا هنا حتى الآن بالنسبة الى تأسيس الأمارة ، في الدرجة الاولى، عدم إمكان وجود الشخص اللائق لها . وكنا على الدوام نعتبر سورية من نصيب فيصل . وليس هناك مما سمعته في الأشهر القلائل الأخيرة ما يجعلني ابدل رأيي في عدم صلاحية عبدالله ، وان تجاربنا في الاسابيع الأخيرة

الحكومة البريطانية كانت على الدوام لهـا اساليبها الخاصة في توفيق ما لا يتوافق .

وكانت الفقرة الأخرى في المنهاج إعداد ما يلزم لاستقبال فيصل . فلم تنشأ في بغداد أية صعوبة بالنظر لوجود كوكس في الميدان وقيام غيرترود وجعفر باشا في تشكيل « لجنة استقبال » ووضع منهج خاص للاحتفالات والافراح . وفي الامكان ان يعتمد على البصرة ، لما فيهـا من الجماعات العسكرية والمدنية الكبيرة ، في الظهور في المظهر الحسن المطلوب ، لكن المشكلة التي نشأت هي مشكلة اشتراك المندوب السامي

القليلة فيبغداد تجعل من الواضح عدم نجاح اي مرشح محلي في الحصول على المعاضدةالكافية هنا» .

٤ ـ سلسلة الرسائل المؤرخة في (٢٣ رجب) ١٢ نيسان ١٩٢٠ المعنونة الى ملك سورية (فيصل) والى ملك العراق (عبدالله) التي وقعت في يد السلطات البريطانيـة . وهي رسائل تهنئة للاميرين على انتخابهما للملوكية وترحيب بعبدالله من رعاياه كانت موقعـة من شيوخ وسادة الشامية والسماوة والرمثية وقبائل المنتفك، ومن وجهاء وسادة الكوفة والنجف والحلةوالشامية. وهذه تدل بلا شك ان الفرات باجمعه والمدن الشيعية المقدسة كانت راغبة في أحد انجال الشريف. وقد قويت رغبتهم في فيصل بعد سقوط حكومته العربية في سورية .

٥ ـ ما ذكرته المس بيل في مناسبات عديدة حول الموضوع . فقـد ذكرت في الصفحة ٢٦١ من رسائلها ان علماء الشيعة نادوا في اواخر كانون الاول بان « البـلاد سوف لا تقتنع بغير الاستقلال التام برعاية احد انجال الشريف » ، وكتبت في الص ٥٨١ : « اني على اقتنـاع تام بانه ليس هناك غير حل عملي واحد وهو ترشيح أحد انجال الشريف ،واختياري الاول منهم الملك فيصل » . هذا كله فضلا عن شعور بغداد قلب العراق والموصل .

اما ما سيذكره المستر فيلبي عن الفتور الذي لقيه فيصل في الاستقبال واتخـاذه ذلك دليلا على عـدم رغبة البلاد في ملوكيته فان ذلك ـ كما سيرى القارئ الكريم ـ ناشىء عن التعليمات التي أصدرها فيلبي نفسه وقد كان وزيراً للداخلية بالوكالة بحجة المحافظة على وعد بريطانية باعطاءالحرية للبلاد في الافصاح عن رغبتها .

ونقول أخيراً ان سير البلاد قاطبة وراء فيصل وتملقها بأسرته الآن وافتقادها له في كل ظرف عصيب ـ ان ذلك كله انصع دليل على انها كانت راغبة فيه ليحقق لها استقلالها ويجمع شمل العرب.

وهناك شرح مسهب يؤيد ما نذهب اليه في كتاب آيرلاند عن العراق الذي نشرت ترجمتـه مؤخراً ، وخاصة في الص ٢٣٨ ـ ٤١ من الترجمة العربية .

والحكومة الموقتة في استقبال فيصل عند اول نزوله في البصرة . وقد بحثت القضية مع كوكس الذي كان مرتاباً في موقفي الشخصي والذي كان يعلم ان انتخاب الملك في النهاية سوف يتم على يدي . ولأجل أن أريحه مما كان يفكر فيه تطوعت ان أشخص الى البصرة لاستقبال فيصل . فاجابني بقوله : « ساكون ممتناً جداً اذا فعلت ذلك » . وعلى هذا أقلني القطار الى البصرة ، وفي كل محطة في طريقنا اليها كان يقابلني حكام المناطق ومستشاروهم مع جمهور كبير من الاهلين ، وكانوا كلهم يسألونني نفس السؤال ، وهو : « ماذا يتحتم علينا ان نفعله من أجل استقبال فيصل ؟ وما هي الأوامر في هذا الشأن ؟ » فكنت أجيبهم جميعاً بقولي : « ليس هناك أوامر رسمية يجب ان تقرروا ما ترتأونه بانفسكم . حيث ان فيصلاً قادم الآن كمرشح للعرش لا كملك . وان وزارة الداخلية ستنظر بالأمر . كما ان ممثليكم المنتخبين سيقررون بحرية تامة شكل الحكومة المقبل وينتخبون رئيساً للدولة . ولا بد انكم قرأتم خطاب تشرشل وعرفتم ماذا يريد هو ، لكن الحكومة البريطانية سوف لا تتدخل في حرية تصويتكم » .

اما المشاورون البريطانيون ، الذين كانوا يريدون بطبيعة الحال ان يتزودوا بتعليمات اكثر دقةً بشأن الموقف الذي يجب ان يتخذوه ، فقد قلت لهم على حدة : « أعيدوا ما قلته للناس الآن من دون ان تضغطوا عليهم في ناحية دون أخرى . حيث ان الانتخاب سوف يكون حراً تام الحرية . وعليكم انفسكم ان تستقبلوا القطار في المحطات التي تقع في مناطقكم من دون ان تنظموا أية مظاهرة ، فان ذلك متروك للأهالي انفسهم . وان الاستقبال حتى في بغداد والبصرة ينظم الآن بصورة غير رسمية [1] » . وقد وصلت البصرة قبل وصول فيصل بيوم أو يومين ،

---

(١) ان هذا يناقض ما جاء في قرار مجلس الوزراء ، الذي كان فيلبي مشتركاً فيه بصفته وكيلا لوزير الداخلية ، في جلسته المنعقدة يوم الخميس ١٦ حزيران ١٩٢١ والمصادف ليوم ٩ شوال ١٣٣٩ . حيث قرر المجلس بناء على اقتراح سماحة الرئيس (النقيب) « وجوب الاحتفال بقدوم سمو الأمير

ورداً على جميع الاستفسارات المتلهفة طمنت الجميع ان الانتخاب سيكون حراً .

وعندما دخلت الطرادة البريطانية الى المرفأ ذهبت بزورق بخاري وفي معيتي أقدم الموظفين المدنيين والعسكريين اليها وصعدنا فيها . وكانت تلوح على فيصل بلباسه العربي إمارات الملوكية التامة ، وكان بجانبه كيناهان كورنواليس والحاشية عندما تلقانا في رأس الممر . كما كان البشر يطفح من أوجه الجميع ، فقدمت له تحيات واحترامات المندوب السامي والحكومة الموقتة ورد عليها فيصل بغاية اللطف والرقة . وعندما وطئت قدماه[1] الارض العراقية لم يكن عنده ما يشكو منه بين الجماهير التي حيته في رصيف الميناء مع ان الاستقبال لم يكن فيه الا شيء قليل من الحماسة ولا شيء من النشوة على وجه التأكيد . وخُصص اليومان التاليان للاحتفالات والولائم والمراسيم الأصولية ، وفي الأخير استقلينا القطار الخاص . وقد سافرت مع كورنواليس سوياً . فتسنى لي تعريفه على الوضع في البلاد وعلى ما يخبؤه المستقبل للبطل الذي جاء معه . فوصلنا الناصرية في الصباح الباكر لنجد في انتظارنا المتصرف ومشاوره وعدداً قليلاً من موظفي الحكومة ــ وفيما عدا هؤلاء كانت المحطة خاوية وخالية من وسائل الراحة . وقد يكون السبب في ذلك وصولنا بصورة مبكرة ،

فيصل والقيام بما يليق بعظمته من التفخيم والتبجيل من قبل الحكومة الوطنية» . كما تقرر باتفاق الآراء « تعيين لجنة لاختيار محل يليق بسمو الأمير ووضع منهاج لاستقبال سموه وان تتعهد وزارة المالية بصرف المبالغ اللازمة في هذا السبيل » . وقد ألفت اللجنة من الوزراء التالية اسماؤهم: جعفر باشا العسكري وعبد الغني جلبي كبه وفخر الدين جميل وعبد الجبار باشا خياط وعبد المجيد الشاوي وعبد الرحمن باشا الحيدري .

(١) وصل الأمير فيصل البصرة تقله الباخرة « نورث بروك » يوم ٢٣ حزيران ١٩٢١ (١٧ شوال ١٣٣٩) . وقد عاد في الباخرة نفسها الى العراق بعض زعماء الثورة العراقية ، الذين فروا الى الحجاز من منطقة الفرات بعد انتهاء أمد الثورة ، مثل السيد هادي مكوطر والسيد نور الياسري والسيد محسن ابو طبيخ وغيرهم .

لكن الوضع كان مماثلاً على طول ذلـــك اليوم الطويل – في السماوة والرميثة والديوانية وفي جميع المحطات التي مررنا بها في الطريق . حيث ان الأهالي كانوا قرروا ان لا يحيوا ملكهم المنتظر . ولم يكن الاستقبال جيداً الا في الحلة حيث كان مقرراً ان نبيت ليلة واحدة ، وقـــد نظم ذلك ديكسن تنظيماً لا نقص فيه .

مصارحتي لفيصل

فتقاطرنا خارج المحطة – وكان الظلام قد خيم – الى فسطاط وسبع جلسنا كلنا فيــه على الأرض حول خوان كبير . وكانت حوادث اليوم قد أثارت غيظ فيصل . وقد قضيت انا وكورنواليس معظم الطريق في قاطرته نبحث الوضع ونتناول الويسكي والصودا . وقد أوضح فيصل انه لم يأتِ العراق الا بدعوة من الحكومة البريطانيــــة ، وانه يتوقع ان يؤازره الموظفون البريطانيون مؤازرة فعالة في ترشيحه للعرش . فكنت صريحاً معه صراحة تامة . كما كان واضحاً جداً ان الحكومة البريطانيـة تريده ملكا في العراق . ألم يقل تشرشل ما يؤدي الى هـذا المعنى ؟ ألم تقلّه الى العراق طرادة بريطانية – والى غـــير ذلك ؟ لكن الانتخاب يجب ان يكون انتخاباً حراً . حيث ان التعليمات صدرت بهذا المآل الى جميع الموظفين البريطانيين في البلاد . وقد اضفت الى ذلك انه اذا كان يريد كسب أصوات الأهالي في البلاد على أساس انه مرشح بريطانية العظمى فان أمله في النجاح سيكون ضعيفاً .

وعلى هذا فليس من العجب أن نراه يحدّث الضيوف المجتمعين ، بعد تناول العشاء ، وهو تعب متكدر . وفي اليوم التالي أقلّتنا السيارات الى النجف لنكون ضيوفاً على رجال الدين الشيعـــة في تلك المدينة المتعصبة ، حيث يرقد آدم وعلي تحت الطـُوق الأرضية العميقة ومن فوقها الضريحان السامقان . وهنا أيضاً كـُرّمنا تكريماً ملكياً وبتنا ليلة واحدة .

وقد ابتعدت انا وكورنواليس عن فيصل بكل تبصر لفسح المجال له بالتعامل مع المتعصبين بطريقته الخاصة هو – حيث كان يتحتم عليه هنا على الأقل ان يبذل كل ما في وسعه من أجل ان يفند الانطباع العام القائل انه مرشح الحكومة المسيحية . ثم سافرنا في اليوم التالي في الطريق الصحراوي الى كربلا حيث وقعتُ فريسة لنوبة مخيفة من الملاريا التي أقعدتني تماماً لمدة اسبوع أو عشرة أيام . فنقلت الى الحلة حيث رافقتني زوجتي لمداراتي وايصالي للشفاء مع تقرير كامل عن الاستقبال الملكي الذي استُقبل به فيصل ، في الوقت نفسه ، عند وصوله بغداد [1] .

وعند عودتي لبغداد ذهبت لمواجهة كوكس الذي بدأ حديثه معي باستفسارات رقيقة عن صحتي ، لكنه سرعان ما انتقل من ذلك الى حديث العمل . فقال لي : « يبدو انك لم تتماش مع فيصل جيداً ، فقد كان متذمراً بمرارة من موقفك خلال السفرة الى هنا . وهو يصرح انه سوف لايبقى ما لم يُطمن عن تأييد جميع الموظفين البريطانيين تأييداً فعالاً له » . فقلت له : « لايمكنني ان أفهم كيف انه يتوقع ذلك بالنظر للأوامر الرسمية ، التي هي أوامرك انت ، والتي لم تلغ أو تحور ، بشأن حرية الانتخاب . وانني كثيراً ما كنت أطمن النقيب وغيره باننا عازمون على البر بالوعود التي بذلناها لهم . وان فيصلاً ، بطبيعة الحال ، قد أدرك

---

(١) لقد جاء في احدى رسائل المس بيل المؤرخة ٣٠ حزيران ١٩٢١ بشأن انزعاج الامير فيصل ما يلي :

« وكانت القصة التي سمعوها – تشير الى حاشية فيصل – على طول الطريق هي ان المندوب السامي يتخذ موقفاً محايداً ، وان الخاتون وغاربيت يريدان فيصلا ، وان المستر فيلي يريد الجمهورية .... وقد ارتبك فيصل بطبيعة الحال – واحتار فيما اذا كان المندوب السامي بجانبه ، واذا كان الامر كذلك فلماذا يتخذ موظفوه موقفاً مختلفاً ؟ وقد اشتدت حيرته عند ما قيل له ان الموظفين البريطانيين الموجودين محلياً اذا أشاروا بأصبعهم فان الناس اجمع سوف يحذون حذوهم . فلماذا لايشار بالاصبع اذن اذا كانت السياسة الرسمية هي هذه ؟ فشرحنا جميع ما وقع مشيرين الى التأخير الطويل الذي طرأ على وصول الاوامر من انكلترة ، كما بينا ان موقف السر بيرسي كوكس كان موقفاً صحيحاً بالكلية وانه عازم على المضي في الأمر الى النهاية » .

ان نجاحـــه سيكون ضعيفاً اذا سار الانتخاب سيراً حراً . والحق انني بيّنت ذلك له بصراحـة . فأجابني كوكس : « انني أعرف انك قلت له ذلك ، لكنك تعـــلم بصورة أكيدة الآن ما الذي تريده الحكومة البريطانية . فرددت عليه بقولي : « انني أعرف ذلك طبعـاً . كما أنني أدركت ذلك منذ مدة طويلة برغم جميع التأكيدات التي بذلتهـــا لي بعكس ذلك . غير أن ما لا اتمكن من فهمه هو ان الحكومة البريطانية اذا كانت تريد وتعتزم ان يكون فيصل ملكاً ، فلِمَ اذن لاتعيّـنه بصورة مستقيمة لا التواء فيها بدلاً من ان تصر على مهزلة الانتخاب . وعلى كل ، انني اشعر اني أصبحت متورطاً تمام التورط بالتطمينات التي بذلتهـا الى الجميع ليساهموا في معالجة شؤون الانتخاب » . فقال كوكس : « انني على علم بذلك ، لكنني لا استطيع ان أفهم كيف يمكن التوفيق بين موقفك هذا وبقائك في منصبك » . وكان جوابي : « اذا كان المتوقع مني ان أدير شؤون الانتخاب فانني لست راغباً في أن أبقى في منصبي ، واذا كان في وسعك ان تعين خلفاً لي سأذهب من هنـا وأسلمه المنصب في الحـــال » . وعندئذ قال لي : « شكراً فيلبي ، انني آسف سوف لايسعك ان تستمر على التعاون معنا [1] » . وبعد شيء من البحث الودي التام بشأن انتقـــاء خلف مناسب — كان كورنواليس أبرز من يليق للمنصب ، لكن انتقاءه الآن يعد شيئاً في غير محله ، وقد قدر له ان يشغل منصبي بعـد ذلك كمستشار للداخلية مدة اربعة عشر عاماً — تقرر اختيار جي. آر. طومسن مساعد مستشار وزارة المالية يومذاك . وبعد ذلك ذهبت مباشرة الى سليتر وأخبرته انني رفعت استقالتي ، ثم أخذت طومسن لأبوئه مكاني .

---

(١) وقد اشار السر بيرسي كوكس الى ذلك ، في ملخصه التاريخي الذي كتبه بمناسبة نشر « رسائل المس بيل » ، قائلا : « .. وبعد سنة اضطررت للتخلي عن المستر فيلبي لانه ، في مرحلة التطور التي وصلنا اليها يومذاك ، بدأ تفهمه لسياسة حكومة صاحب الجلالة يبتعد جداً عن تفهمي لها . لـكنني مع هذا اعترف بفائدته العظمى لي في الايام الاولى » .

وعند دخولي غرفة الاستقبال في البيت قلت لزوجتي : « لقد قدمت استقالتي » . وسرعان ما انتشر الخبر في جميع انحاء المدينة ، وفي وقت تناول الشاي دخلت علينا غيرترود بيل قائلة بتعجب : « جاك ، انني آسفة لسماع هذا النبأ » ، فبادرتها زوجتي بفظاظة قائلةً وهي تخرج متعدية اياها الى خارج الغرفة : « كلا ، أنتِ غير آسفة » . فطيبت خاطر غيرترود بعد ان قدمت لها كوباً من الشاي ، ثم أخبرتها عن مقدار سروري بالابتعاد عن هـذا الدس القبيح . وكانت زوجتي تتوقع ان تضع طفلاً في تشرين الثاني ، فوافق كوكس على بقائها في دارنا بقدر ما يروق لها ان تفعل . ولأجل ان أقضي على تورطي بالبقاء في بغداد ، في الوقت نفسه ، طلبت اجازة لثلاثة أشهر اقضيها بالتجوال في إيران . وبمثل هذا انتهت علاقتي الرسمية بالعراق وبكوكس : اما قانون الانتخاب ، الذي تعبنا في إحضار لائحته ، فقد أودع في سلة المهملات ، وبدلاً من الانتخاب المزمع اجراؤه نظم كوكس استفتاءً حول سؤال واحد ، وهو : « هل ترغبون في ان يحكمكم فيصل ؟ » فأجاب على هذا السؤال ٩٦،٥ ٪ من الناخبين بالايجاب . وقـد شهدت زوجتي كيف تُوّج فيصل ملكاً على العراق في ٢١ [١] آب ١٩٢١ أثناء ما كنت اتمتع باجازتي في ايران .

---

(١) الصحيح هو ان تتويج الامير فيصل تم في ٢٣ آب وليس في ٢١ منه .

انتهى طبع هـــذا الكتاب على

مطابع دار الكشاف - بيروت

٢ نيسان ١٩٥٠



مطابع دار الكشاف - بيروت